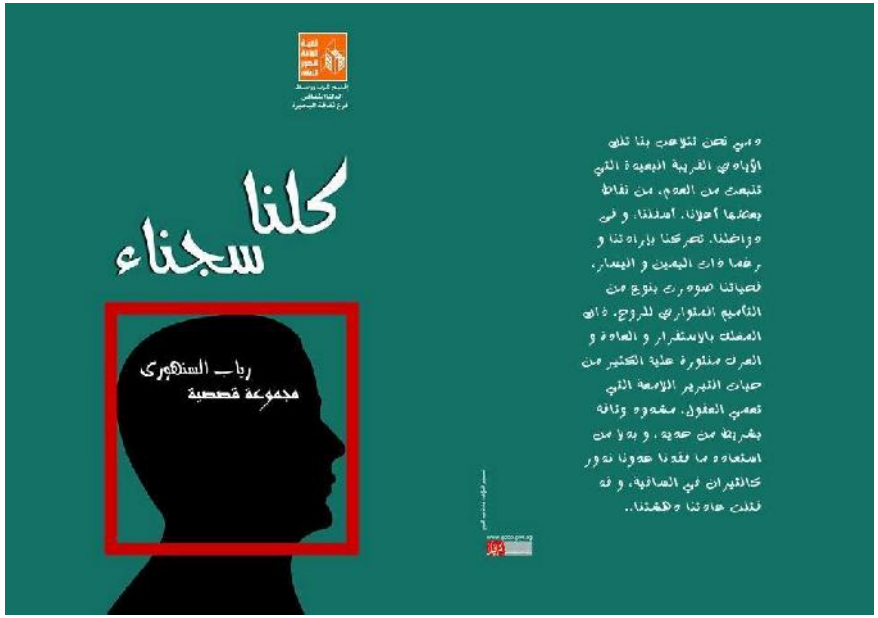

كلنــــــــا سجنـــــــــاء

مجموعة قصصية

رباب السنهوري

إهـــداء

لامرأة هي الحياة

أمي مداد كلماتي ما حييت لن يوفى، و لو قدراً ضئيلاً من حقك..

ربابـ

رنيـــن الأمل

رنين الأمل

دقات هاتفها تتعالى شيئًا فشيئًا، تخرق الصمت المميت حَولها، ينبعث على إثرها صوت لمنشدٍ ما ، يجهر بدعاءٍ للموتى، كانت قد خصصته نغمة لهاتفها ، الذي لم يكن لها من مؤنس في غربتها سواه ؛ خصصتها لتذكرها بما نزف وجودها من مؤنسيها. تحركت ببطءٍ مهموم متردد متحز تجاه الهاتف، و هي تُسائل نفسها : هل تجيب و تَسمع المزيد من كلمات المواساة و لشفقة التي سئمتها ؟؟ أم تعزف عن الإجابة، و تتعلل بأية أسباب في المرة القادمة؟

فمنذ ذلك الحادث الأثيم الذي دهس تحت عجلاته أفراد أسرتها لم يذر سواها على قيد الحياة ، اسماً لا وصفاً ؛ أصبح رقم هاتفها على المشاع، و أفراد عائلتها القريب منهم يخبر البعيد بأمرها؛ كي يستطيعوا مواساتها ، و يقتلوا وحشتها ؛ بالتفافهم حولها، و لو عن طريق الهاتف.

كل مرة يدق فيها جرسه تطالع على شاشته رقم جديدًا لا تعرفه ، و ما إن تجيب حتي يبدأ من على الطرف الأخر فى تعريفها بنفسه، و مدي قرابته بها ، ثم يشرع فى مواساتها. هي الآن تمسك بهاتفها، انتهي الاتصال، لم تجب ، دق جرسه من جديد، فأجابت بصوت لم يخف حزنه ، توجسه، رقته.

- ألو من المتحدث؟!

و انتظرت لتستقبل كالعادة السيرة الذاتية لأحد أفراد عائلتها الذين تجمعهم بها قرابة بعيدة ، لكن ذلك لم يحدث فقد أتاها صوت حانٍ ، شغف ، ملهوف و خشن بعض الشيء لشاب في الثلاثينات.

- ألو ، نبيلة! أين أنت؟! لقد يئسنا من الوصول لرقم هاتفك، نحن قلقون عليك فوق الوصف،نبيلة!

ثمة التباس بالأمر، فلا هي تدرك من الذي يتحدث ، و لا مع من يتحدث؟! حينها نطقت ، و مازال الحزن يخيم على صوتها.

- أستميحك عذراً ،فأنا لست بالشخص الذي تقصد.
- حقا ! آسف صوتكما قريب النغمة.
- لا داعيَ للأسف. أتمني من قلبي أن تجد رقم هاتفها الصحيح. يبدو أنها شخص عزيز عليك. بعدها شردت بذهنها ، و هي تمتم أنا أعرف كيف هو الفقدان إنه أشد الأحاسيس إيلاما .

انتهت محادثتهما.عادت من جديد لمكانها. تجتر أذيال عجزها وألمها. تأتي على ذهنها خطوطه العريضة : الحادث، سيارتهم المهشمة تحت عجلات النقل الثقيل ، أفراد أسرتها ، كانوا جميعا. توارى أجسادهم الثري. بينما يكذب الأطباء مدعين أنهم بغرف العناية المركزة ؛ كي يجعلوها تتشبث بالحياة. عضت على أسنانها، شفتيها ،أغمضت عينيها بشدة؛ كأنما هي تحاول أن تختزل الألم بداخلها. انتقلت بذاكرتها لما بعد الحادثة. كم حاولت - عبثا - الاتصال على هواتف أفراد أسرتها ، و كم كانت تصيبها الهواتف التي لم يحطمها الحادث فتعطي جرسا في أذنها ؛ يجعلها ترقب إجابتهم لها بهياج عصبي! تذكرت رقم هاتف مصطفى (أخيها الأصغر)، حين باعته الشبكة التابع لها لآخر، حينها تمنت لو أن هذا الآخر أخوها. كانت كغريق يتعلق بقشة. حادثته و ترجته كثيراً أن يعود إليها ، لكن المالك الجديد للرقم أخبرها بكل برود أنها مخطئة. ثم عادت لتتذكر ذاك الذي يبحث عن نبيلة، حزنت لحالة ،لهفته عليها تلك التي جعلته يسرد حنينه لمجرد سماع صوت مقارب لصوتها.

فى المساء تمددت بفراشها، تعاني الآلام ليالي الحزن و الوحدة. دق هاتفها من جديد. تعالى على إثره صوت المنشد مردداً ذات المقطع. التقطت هاتفها من فوق (الكومودينو). إنه نفس الرقم الخاص بالشاب توقعت أنه ربما وجد ضالته ، يعاود الاتصال ؛ كي يزف لها الخبر؛ لذا لم تأخذ وقتاً لتجيبه ، رغم إنهزام جسدها . تحدثت بصوت طاوعتها فيه نبرة رجاء.

- ألو
- هل عثرت على رقم هاتفها؟

تعجب من اهتمامها بالأمر، ما زالت تتذكر ألمًا لا يوجعها رغم أنه بإد من صوتها أن لديها من الحزن ما يكفيها و يزيد . بحزن أجابها :

- ليس بعد.

كررت تمنياتها لهفلسطرد مستفسرًا

- لم أقابل في حياتي بشرًا يتمني الخير للآخرين مثلك! تتمنينه لي حتى و أنت لا تعرفينني !
- ربما لأن ما بيني و بين الفرح أسفار طويلة ، مدائن مظلمة، طريق الآلام ، أشتاق أن أسمعه أو ألحظه في صوت الآخرين، عيونهم.

طال بينهما الحديث. وجد فيه الشاب ما يفك إبهام الحزن المتدفق كشلال من صوتها و تعبيراتها، وجدت هي أيضا تفسيرا لشوقه و حزنه على نبيلة أخته. مازال و أسرته بعد عام – من فقدها- في انتظار عودتها.

أنس كل منهما للآخر ، تخلصا من شيء من طاقة حزنهما قبل أن يخلدا للنوم . أخذ كل منهما يفكر في الآخر، و يشفق عليه من آلامه و مآتم فرحه بعدها راحا في نوم عميق.

في الصباح ، مع دقات الساعة السادسة و النصف ، دق جرس هاتفها أفاقت من نومها ، قد ألفت الشاب ؛ فلم تتساءل ماذا قد يريد في هذه الساعة المبكرة؟!

لكنه أجابها على السؤال دون أن تطرحه.

- أسف لإيقاظك في هذه الساعة المبكرة؛ فقط أحببت أن يكون صوتك أول ما أبدأ به يومي.

لمست كلماته إليها وتراً حساساً بداخلها. حاولت أن تعود بعدها للنوم. لكن الأمر أصبح شاقًا جدًا، هي التي لم يدق هاتفها طيلة أربعة أشهر مضت سوي؟!

لتستمع المزيد من كلمات العزاء و المواساة. تساءلت في نفسها.

- تري فيم يفكر؟!

ثم استبعدت أن يكون في الأمر ثمة إعجاب ؛ لكنه على الرغم من ذلك قد شغل تفكيرها. يومها فقط لم تكترث لأعداد اتصالات المواساة التي استقبلتها. ثمة همزة وصل بينها وبين الحياة قد خطها صوته.

في المساء دق جرس هاتفها؛ تصاعد على إثر دقاته صوت للرجاء حين أنشد النقشبندي مولاااااي إني ببابك قد طرقت يدي. لم تكن تدري حينها منْ المتصل؟! توجهت للهاتف بثقل المضطر في الحركة، و سرعة في اللهفة. فأتاها صوته بنفس اللهفة و ربما أكثر.

- افتقدتك كثيراً ، أحببت أن يكون صوتك آخر صوت تسمعه أذنى قبل أن أنام ، أريد أن أحلم بك . أسعدتها كلماته ، لامست الأنثى المهملة بداخلها، منحتها بصيصاً من ماء الحياة. طال بينهما الحديث غط في نومه، و هو مازال على الهاتف من شدة الإرهاق، حينها لم تغلق الهاتف. لكنها ظلت بعض الوقت تسترق السمع لأنفاسه ، تنعم بإحساس دفء شعرته منها، كأنما أنفاسه تقترب تلامس أنفاسها.

في الأيام التالية تكررت أحداث اليوم السابق بحذافيرها، ما بينهما قد ازدادت قناديل مشاعر الاشتياق، اللهفة، الدفء، اللوعة وهجًا، لكنها ما إن تنتهي إحدي محادثاتها حتى تنطفئ - رغما عنها - قناديل مشاعرها، حين تروح تسأل نفسها

- وماذا بعد؟!

- إلى أين تقودنا خطانا، هو لا يدرف كيف أنا! ربما لو يدري لانسابت من شفتيه لى - عوضا عن الكلمات الحريرية الناعمة باعثة الدفء - كلمات المواساة . انضم لأفراد عائلتى فى شفقتهم بى ، هل يجب أن أخبره؟ هل أفعل و أخسره ؟ أم أنه يحبنى حقا، لن يكون ما بي سبب فى خسارتي له؟! ربما من الأصلح أن أبتعد

عنه، أتركه لحال سبيله. يوما ما سينعم بصحبة فتاة سوية، تتراقص كالفراشة بين راحتيه ثم تعود فتحدثها نفسها : لا بل هو يحبني مثلما أحبه، لو كانت أدوارنا متبادلة، أجسادنا متبادلة ، له ألما رافى و لى أطراقه ، لما فرطت فيه أبداً. كنت سأحمله بعيونى، أغطيه بأهدابي ؛ أدفىء ضلوعه بأحضاني أقبل بشفتي أطراف وجعه كي يعلم أني أعشقه - هو- الروح لا الجسد.

انتزعتْها من شرودها دقات هاتفه فى المساء. تطلعت للهاتف لكنها هذه المرة لم تجبه . ازدادت لهفته وشوقه إليها. كرر الاتصال مرة أخرى. فلما لم تجب ازداد قلقه، اضطرابه.

أخذ يسأل نفسه ما الأمر تري هل حدث لها مكروه ؟! تكرر الأمر حتى فاق العشرين اتصالاً بلا جواب. كان يتمزق مابين لهفته إليها شوقه، قلقه ، ألمه ، حنينه . كانت هي تتمزق لتمزقه هذا ولحالها هي . علم بأسباب ما فعلت، هي من خطت أولى خطوات البعد ، هي من تشتاق إليه، و تتحدي اشتياقها لئلا يرفضها فتموت ألماً.

إنها المرة الحادية و العشرون ، هزمها شوقها .أجابته فأتاها صوته ملتاعًا:

- ماذا حدث؟! أين كنتِ؟قتلني الخوف عليك. لماذا تفعلين ذلك معى؟! أنا أحبك ، لابد أن أراكِ لا أستطيع أن أصمد وقتاً طويلاً على هذه الحال ، لا أنال من فرحتنا أننا بجوار بعضنا الأثر سوى مكالمات هاتفيه ، لا أستطيع الاستغناء عنك ، لابد أن نضع حداً لأشواقنا هذه ، حددى موعدا أرجوك.

كان حديثه سريعًا متواصلًا ؛ لم تستطع حينها أن تنطق، و لم تدرك كيف من الممكن أن تفعل ، تسارع نبض قلبها ، توقف عقلها ، عجزت حنجرتها، لم تنطق سوي بثأثأة.

- أنا .... أنا .... أعشقك.

همت أن تصارحه بما يقلقها منذ بداية تعارفهما، لكنه لم يمهلها.

- من فضلك اضربي موعدا لأراك.

فعلت ، في ليلتها تلك لم يطلها من وصف النوم سوى أنها ممدة فراشها ، تقلبها أفكارها ذات اليمين و ذات اليسار. فى الظهيرة أخذت تعد نفسها لمقابلته عصرًا. هي تعلم كم تستهلك من الوقت للخروج بحكم حالها. بالإضافة إلى كم الارتباك الذي يثقلها ، يقهر حركتها أكثر .

هاتفت ابنة عمها الصغيرة قائلة:

- حبيبتي هلا ساعدتني اليوم ؟؟ أحتاجك لأمر هام.

حضرت إليها ابنة عمها أخذت تساعدها فى تجهيز نفسها، لفت انتباه الصغيرة كم الوقت الذي استهلكته أمام المرآة ! فلم ترها يوما من بعد الحادث المشئوم تضع مساحيق التجميل، تهتم لملابسها، ترتيب خصلات شعرها.

كانت العائلة بأسرها اعتادت عليها، كما لو كانت ميتًا لم يوارى جسده بعد ؛ فلمعت في عينيها ابتسامة أمل ذكية، نزلت بعدها على تنفيذ كل ما رغبت بعدها ، قدتها للمكان الذي حددته. فى الموعد كان حبيبها ينتظرها، رياح اللهفة تجتاح قلبه، هو يحاول أن يمسك مشاعره و لو قليلاً ؛ كي لا يحتضنها أمام الناس ، أصبحت على مقربة شديدة منه، قلبها أخبرها بأنه ذلك الممزقة عيناه ذهابا و إيابا بحثًا عنها.

همت أن تعود لكنهُ هاتفها. أجابته مضطربة:

- أنا بالقرب منك الآن ماذا ترتدي؟!

- أجابها ثم أردف مستفسراً ، و أنت؟؟

أخبرته بألوان ما ترتدي ، ثم أردفت تقودني ابنة عمي ، تطلع إليها كم كانت جميلة ، لكنها مقعدة!

بعدها لملم حاجياته ، همّ بالوقوف ثم ألقى عليها من بعيد نظرة ، كانت الأولى و الأخيرة.

الحـــلال و العيب

الحلال والعيب

تحسست هديتّه إليها برقة بالغة ، كما لو كانت تعزف بأناملها على جسد الدميتين ، كانت الهدية على هيئة رالصي باليه يحويهما صندوق ، يتراقصان على أنغام موسيقى ناعمة، يختلط عزف أناملها الحزين مع الموسيقى الناعمة ، ليصيب اضطرابا بداخلها. تتذكر كم كانت تسمو روحها مع رقصتهم حين منت نفسها أنها ستصبح يومًا كتلك الراقصة الرقيقة بالصندوق . تنحت و تتشكل بين راحتي حبيبها، كد تمنت أن تنقل الصندوق من غرفتها الخاصة لتضعه بصالون منزلها ؛ كي تباهي بمعناه قبل روعته القاصي و الداني . تفقأ عين مجتمعها ، ذلك المنتهك الدائم لشعورها.

هي امرأة في العقد الثاني ذابلة الشباب، منطفئة العنين، مكلومة الجمال، أنوثتها تحتضر. تتطلع كعادتها إلى السماء ؛ منذ وصلتها تلك الورقة المشئومة، تستجدي الله الحنان، في عينيها مناجاة تعجز كل الأقلام عن وصفها، على أعتاب أهدابها تقف دمعة ؛ لا يمنعها من النزول سوي ما تبقى- من كرامتها و الكتمان.

بسماتها مفروضة، مجاملاتها للجميع واجبه. يلتهمها الحزن لدرجة تجعلها تخاف أن تصيب طفلها باكتئاب ؛ إن هي مسحت على شعره. لم تكن تكترث كثيراً للحزن المحتل ملامحها ، فقد كانت تري أن كل حزن الدنيا يهون إن قورن بحزنها، هي تتعنت مع قلبها ، تعتقل طبيعتها، تتصنع السعادة؛ لترضى جميع منْ حولها. تذكرت حين كانت تدعوها إحدي صديقاتها لحفل زفافها ، كيف كانت تخوض معركة مع ذاتها !تتمزق فيها ما بين رغبتها في البعد عن العيون و رغبتها أن تكون بجانب صديقتها، حين تفوز رغبتها الأخيرة، و تقرر ألا تغيب عنه في يوم كهذا. تأكلها عيون المدعوين ممن يعرفونها، نساء كنّ أم رجالاً. أرقام هواتف تسرد أمامها

مرة بغزل متبجح، و أخري بدعابة تخفى تبجحها ببرقع ، لتنزعه حال موافقتها و مباركتها.

رفعت عينيها للسماء تنهدت بزفرات محترقة ، عادت لتناجي ربها. فهي على قناعة بأنها لم يعد لها من ملاذٍ غيره، لسان حالها يخرق شكوه الآذان.

- يا رب لم أقترف ذنباً في حقه ، تحملت المستحيل كي لا أهدم بيتي. لكنك الأعلم كيف كان يعاملني هو و والدته ؟ الجميع اقترفوا ذنوباً ضدي، أنا امرأة ضعيفة، أنت تعلم أنى صبرت حتى ملّ الصبر مني، لما قررت أن أضع حدا لانتهاك حقوقي و كرامتي. لم أطالب بغير ما شرعته لي عشت حياتي مجنيًا علي ،فلماطالبت برصاصة الرحمة صرت أنا المذنبة!

كانت تبرز مناجاتها لربها من عينيها فى كل مكان و موقف ، حين تصلى، فى جذبها لباب المنزل خلفها حال خروجها، فى تواريها عن أعين الجيران ، في عملها، في طريقها ، في تطلعها لطفلها و هى تمنحه ثياباً جديدة.

كلت دوماً تتساءل.

- لماذا يعاقبه المجتمع كما لو كان ابناً من سفاح ؟! لأنها لم تستطع أن تتحمل الزواج من مريض نفسى أكثر من بضعة أشهر! و أنجبته في بيت والدها!لماذا يحرم المجتمع ما أحل الله و يحل ما حرم على هواه ؟!

جذبها من شرودها صوت طفلها يناديها،جاذبا إياها من ملابسها. حملته على فخذها، أخذت تهدهده، غابت يداها تعبث فى شعر، وغاب حضورها الذهني. أعلنت الدموع عن حضورها ؛ حينما قررت أن تشركه معها فى همومها. كان توترها باديًا من رجفة صوتها و أطرافها، كانت تدرك لصغره أن شكوها لن يوجعه.

- أتعلم ؟! حين أمضى في الطرقات ترقبني أعين الناس تجرحني، تنهش ألسنتهم عرضي نهشاً، موصومة أنا بالعار، على لرغم من أن زواجي من أبيك كان شرعياً بموافقة من والدي بإعلان و بشهود،كان جهارًا نهارًا، على أعين الجميع، لم آت حراماً، لكن الناس لا يرحمون، تلقف أذني شيءٌ من حديثهم، و هم يتساءلون:

- إلى أين هي ذاهبة ؟! لا يحق لها الخروج هكذا ، بسبب و بدون!
ثم استطردت هازئة:

- و كأنهم هم من يحددون السبب و أهميته بالنسبة إليّ . هم من يحددون ما يليق و ما لا يليق!إخال في نفوسهم المريضة ألف سؤال و سؤال، كأن المطلقات لا تعرفن الله ؛ تزوجن فقط من أجل أن يطلقن فيفعلن ما يحلو لهن، كأن العذرية أو الزوج هما الرادع الأول و الأخير! و كأن الضمير و الخلق يتعاطيان أقراصًا مخدرة ؛ فهما مغيبان غائبان في عرف المجتمع.

كانت لم تزل في الرابعة و العشرين من عمرها. العمر طويل أمامها، احتياج الأنثى بداخلها لحضن يؤويها يكسرها ؛ فتطول حيرتها. صراع داخلي يحرق أعصابها. أتنصاع لرغبات هذا المجتمع المريض ؟! فتنكب على مراعاة طفلها وحده ، تعيش لأجله ، تفقد الأمل في حياتها كامرأة ، كما لو كانت كيانا ميتاً بلا شعور أو رغبة ، هي تتنفس الحياة من أجله، و لكن أما من متنفس للأنثى بداخلها؟! تلك التي تود أن تحيا. أتهرب من معتقل زوج مريض لتختبئ في أحضان مجتمع أشد مرضاً؟ !

تظل أسئلتها حائرة، تعود لليأس الذي لم تفارقه، تصبح هي الأخرى مصابة صريعة التقاليد ، فتقرر أن تتقوقع على نفسها حتى الموت. تتوه في متاهات مناجاتها ، ثم تنتبه لتقع عيناها على الصندوق الراقص ! تذكرت منْ منحها إياه ؛ فانسابت من عينيها دموع الألم و الحسرة. كان شاب في مستهل العمر، اخترق سياج حياتها الحاجز، أخذ يتطلع إليها ، عيناه

تراقبانها في غدوها و رواحها ؛ لتجدد بصيص الأمل فى ظلمتها المقفرة، و تشتاق الزهرة الذابلة بداخلها للارتواء. نعم هو لم يتزوج مطلقاً لكن ملابسات حياتها معروفة لديه.

حاولت أن تتماسك بعض الشيء رغم أن قلبها قد لان له، و نبض بالحياة. صارحها بحبه لها ، بحثت عن شيء من رباطة الجأش بداخلها لم تجد ، حينها نطقت بتماسك مصطنع.

- كلانا لا يصلح للآخر لأنني مطلقه و أم لطفل.
فإذا به يتعنت أكثر، و يصر على طلبه بالزواج منها أكثر؛ كان يري أنها لم ترتكب جرماً فتُعاقَبَ عليه.

ظل طوال ثلاثة أشهر يلح عليها ؛ فانصاع له القلب الذي التهمه الجفاء. لم يكن يدرك أن رفضها له كان رغما عنها ، عن شعور متقد بداخلها تجاهه يقتلها ، و هل هناك من امرأة تقدر على الصمود مع إلحاح رجل يكن لها كل هذا الحب ؟! بعد أن حرمها المجتمع حتى من إلقاء السلام على الآخرين دون شك في مأربها.

رأت به ملاذًا من كل ظلم ؛ وافقت على الزواج منه . بعدها صارح الشاب أسرته برغبته تلك ، فما لقي منهم إلا نظرات تصفه بالعته و الجنون . لم يكن يدرى كيف يفكرون ؟! تساءل كثيراً لماذا حين يمر رجلٌ بنفس الظروف فإنه فى الغالب يتزوج من فتاة بكر؟! و لماذا تمتهن المرأة ، تهان و تُصوب علي قلبها و سمعتها كل سهام الغدر و الخيانة ؟!

ضاقت الدنيا عليه أكثر ؛ فهو يعشقها. هى الأنثى الوحيدة القادرة على احتوائه ، على الرغم من تجربتها السابقة ؛ فإنها لم تحتو بأسلوب الأنثى العطشى، لكنها احتوته بنقاء قلبها و طفولة أحلامها، و خيالها المعذب.

عزم على الحضور إلى والدها دون أسرته، فاستقبله الأخير مرحبًا، و بعدها أخبره أنه لا يستطيع أن يوافق بأمر كهذا فلابد أن تكون أسرته بأسرها راضية عن زواجه من ابنته ، مباركه له و إلا فإنه مرحب به فقط كابن له و أخ لابنته.

فهو لم ينس أبداً أن دمار حياة ابنته؛ كان لتعنت حماتها و رفضها إياها . و قد أشفق عليها من المرور بتجربة أخري فاشلة.

لكن على النقيض من والدها. كانت أسرة الشاب قد رفضت حتى دخولها في تلك التجربة ؛ لذا ظلت هديته لها حبيسة صندوق ذكرياتها.

لا تتحمي !!

لا تتحممي

جلست تراقب ، كم كان مشهدا مَـهيبا!

لسان يحاول جاهدًا أن يتمتم بالشهادة ، سبابة اليد اليمني تعلو ببطء متحدية الرمق الأخير، تهبط **رغم إرادة الجسد** ، و عينان تحجرتا على سقف الحجرة دقائق ؛ كانت فيها النفس تتصعد إلى خالقها ؛ فتوقفت في حلق الملتفين حولها كل الكلمات ، لا أحد ينبس ببنت شفه ، لا أحد يصدق ، ما هي إلا لحظات حتى خرق صمت المنطقة ، صراخ عات. ثم خرج الملتفون حول المتوفى و الصدمة تعرقل ألسنتهم من فرط هول المشهد ، لا صوت **سوي صراخ النساء اللاإرادي المتواصل.**

توجه أحد رجال الأسرة للمسجد المجاور، و أعلنها للملأ بصوت رخيم اختلط فيه الذهول **بالشجن بعلو النبرة:**

- بسم الله الرحمن الرحيم. توفى إلى رحمة الله تعالى اليوم المرحوم **سالم محمد العبد** شقيق كل من........... و إستطرد في سرد أسماء أشقائه الأربعة ثم أعمامه من بعدهم و حدد للدفن ميعاداً بعد صلاة **العصر.**

بعدها تحول البيت إلى ساحة مفتوحة، أناس يدخلون و آخرون يخرجون ، الإخوة الرجال يستقبلون المعزين، و النسوة تستقبلن المعزيات **منتحبات لاطمات خدودهن.**

جلل الموقف لم يمنع المعزين **من** أن يغنى **كل واحد** منهم **على** ليلاه.

فهذا يخوض في سيره المتوفَى و أهل بيته، هذا يحكي عن أعماله، هذا يوطد علاقة نسب، هذه ملأت بالغيبة و النميمة حصالة أعمالها.

انتهت مراسم الغسل، حمل المتوفى على الأكتاف ؛ لتقام عليه بعد العصر صلاة الجنازة ، عند الباب الخارجي تعطل حاملوه في الخروج ؛ لضيقه ، هنا يفقد المشهد المهيب جلاله ؛ فتتبارى النساء في الصراخ، العويل، لطم الخدود، شق الجيوب رياء لأهل المتوفى.

إنه فيلم تراجيدي جل الصدق فيه أنه تمثيل، يغيب المشهد الجنائزي عن أعينهن **،فتعودن من** جديد للخوض فى السير.

مازالت الفتاة تراقب ، تلعن الأيام التي جعلتنا ننافق فى مشهد لا مفر فيه من تذكر الآخرة، إلى أن تعالت على حين غرة ضحكة جانبية صاخبة**،** انتهكت عرض المشهد **أكثر.**

أطرقت الفتاة السمع لمصدرها ، فإذا بهما فتاتان منقبتان و زوجة المتوفى . هبطت على قلبها صاعقة جديدة ، تطلعت لزوجة المتوفى، و تساءلت فى نفسها:

- أليس من خرج جثمانه للتو - كى يواري **التراب** - شريك العمر؟!
تُـري هل تخيل ما يحدث الآن حين كان على قيد الحياة**؛فمات كمداً؟!**

أخذ صوت نصائح الفتاتين اللامنقطع للزوجة يتهادي إلى أذنها شيئاً فشيئاً. إنها نصائح كيف تعتدين بعد وفاة زوجك ، بدتا من فرط السرعة فى سردها ؛ كأنهن يحفظنها عن ظهر قلب من الكتيبات الرخيصة التي يؤلفها الحمقى؛ لتباع على الأرصفة أو تكون ذريعة للتسول على شاطئ أو في قطار ؛ حينها رمقتهما ببغض لم تشعر به تجاه أحد من قبل؛ فهاتان لا تجرحان شعورها الشخصي بل تجرحان - بكل برود - شعور الإنسانية، **تتلذذان بذلك** تساءلت فى نفسها:

- كيف تفكر هاتان؟! أى قلب هذا الذى يستقر فى صدريهما**؟!**

كانت النصيحة الأولي:

ألا تستحم حتي تنتهي عدتها ؛ بعدها تعالى صوت الزوجة ضاحكة.

- (**عافاك**) و كيف أتطهر لأصلي ؟!

الفتاة يشتعل بداخلها سعيٌر، هل هذا الوقت المناسب للخوض فى حديث كهذا. أعوضًا عن تذكر الآخرة نفتح للدنيا بابا جديداً و حديد الروح **مازال ساخناً ؟!**

ثم عادت منْ كانت تنصح تبرر نصيحتها الأولى ؛ لم تنس أن تضيف إليها زبدًا من العته. حسنًا يحق لكِ أن تتحممى كل شهر شريطة ألا تغيري ثيابك أو تجالسي أبناءك من الصبيةَ!

أو تتبادلى السلام مع أحدٍ من إخوتك أو زوج ابنتك! إن كان لكِ ابنة **متزوجة ، ألا تخرجي ابدًا** من بيتك ، و إن كان لابد **فليلا**.

حينها انفجرت فيهن الفتاة.

- من قال أن المعتدة لا يجوز لها أن **تستحم كباقي البشر؟!**من قال كل هذا الشطط الذي تتفوهين به ؟
فأجابت أصغرهما.

- لقد ذكر هذا الأمر في القرآن .
-**في القرآن؟ !**
توقعت الفتاة أنها ستحاول أن تأتيها بأية من القرآن تحمل نفس المعني، كانت توقن أنها لن تجد. لكنها فوجئت بها تجيبها.

- الشيخ فلان و فلان قالا بذلك .
كان الشيخان من أعلام إعلامنا ، أنكرت الفتاة أن يكون أحدهما قد قال بأمر كهذا؛ فكيف يطلبان من امرأة ألا تستحم حتى تنتهي عدتها؟!**ألا** تجالس محارمها حتى أبناءها ؟!

بدا صراع فكرى ، تبارت فيه المنقبة الصغيرة بلا منطق ؛ لتثبت أنها أعلم ، أن الفتاة التي ردت عليها شططها ، جاهلة متعالمة. كانت في صراعها لا تتفانى فى تنزيه مشايخها ، من تأخذ عنهم معلوماتها. تعود الفتاة لتفهمها الأمورمن جديد.

- أنصتي أنا لا أعارض مشايخك لكن ما تتحدثين به شطط . يأتي **من رأسك أنت** ، لا أعتقد أن **أحدهما** تفوه به **و إن فعلا** فأين عقلك ؟!

- **عقلي ؟!** هؤلاء علماء أجلاء لا تجوز مراجعتهم.
- أخذتَنا من البحث عن النص ، لنتقصى خطأ مشايخك و إصابتهم. حسناً فلتخبريني إذا من يسدل على أي فرد وصف العالم ؟!الطبيب ، المحامى و المهندس صفات تمنحها مؤسسات الدولة. من يسدل وصف العالم على فرد غير مجتمعه ؟!ألم يثبت خطأ أفكار كثيرة أجمع عليها المجتمع، أليس العالم بشراً مثلنا يصيب و يخطأ ؟!
حينها نهضت الفتاة الأخرى بصحبتها قائلة:

- هلمّي بنا ليس لجلستنا هنا من فائدة، قررتا الخروج من العزاء، **من رأسيهما لم تخرج الفكرة ،** خرجتا متشبثتين بها ، **ربما حتى لن** تحاولا مراجعتها ؛ **بدا** ذلك من جنون الكبر يطل من أعينهما، بعدما وقفتا من جلستيهما، و نظرتا للفتاة شزرًا ثم رحلتا يحدوهن رفض الأخر ، بعدها عادت المزيات من جديد، كل واحدة منهن تمسك **بأذن الأخرى** و تغني على ليلاها.

رسالة لرجل تجمد

رسالة لرجل تجمد

ذات ليلة أفاقت من نومتها بجانبه ،بعد أن ضاق الخناق على روحها، لد كانت ليلة كما كل لياليهم موبوءة بالفتور ر بالروتين. بهدوء استلت نفسها من الفراش ، خرجت من غرفتها لغرفة أطفالها، ألقت عليهم نظرة حانية، خانت عينيها دموعٌ مكتومة ، لم تقدر على الإمساك بشعور بعينه؛ ليكون سببا فى نزولها . عادت بذاكرتها لخلف حتى يوم زفافها. لم يمض كثير، لكن كم تشعر أنه مضى دهر كامل ، على الرغم أنها تنام فى أحضان منْ كان حبيبها ، لكنها تفتقد شيئاً كبيرا. أغلقت الباب على أطفالها بخفة، توجهت لغرفة المكتب ، دلفت إليها ، أحكمت إغلاق بابها ، أمسكت بقلم و ورقه ، قررت أن تفرغ مشاعرها على الأوراق . كانت وحدها القادرة فى هذه اللحظة على سماع نبضها الممزق ، استيعاب شلال دموعها، صون أسرارها. خطت دموعها على الورقة لبيضاء خطين يتصلان في نقطة ، و يفترقان فى أخرى. ثم جري القلم فوقها يفرغ أوجاع قلبها و أحماله.

حبيبي.

اعذرني لم أعد استطيع أن أصير لك قلبا و عمراً و كياناً. كما كنت في بداية حياتنا. أعرف نفسي على أنني أنثى خلقت فقط من أجل أن تعتني بك ، تنزل على رغباتك ، فكلانا يا عمري قد تغير، أدرك أنني أيضًا تغيرت كثيرًا ؛ لكنني ما جاء تغيري إلا كرد فعل لتشبثك و عنتك فى البعد. فنحن و إن كنا ننام في ذات الفراش ، لكن حياتنا أصبحت مسلسلاً مستهلكًا محروقة حلقاته. لم يعد بها من جديد سوي حجم الألم الذي تتركه لي ؛ فهو يزداد يومًا عن أخر. تستكثر علىّ ، حتى الأشياء البسيطة التى كنت ألهى بها نفسي لانشغالك عني.

لمَ لمْ تسأل نفسك - ولو لمرة واحدة - : لماذا تجهد روحها دائما فى أشياء من هذا القبيل ؟! لما لا تستطيع أن تدرك أن المرأة كما تعشق جمالها ، تحب أيضاً أن ترى كل شئ حولها جميلا؟! أليس من الأولى أن يهتم حبيبها بجماله؟!

كلما نظرت إليك ، و أنت على حالك تلك التي أصبحت عليها؛ أحن لأيام كنت أود بها لو ارنميت بين أحضانك من فرط جاذبيتك، حتى لو كنت المرأة الوحيدة بالعالم التى تراك كذلك ، كنت تملأ عيني ، و دائم الاهتمام بملء قلبي و حصار مشاعري، كنت دوما تشعرني بالأمن بالله. ما الذي حدث لنا ؟! ألأنك قد ملكتني لم تعد تكترث؟!

يأخذك مني عملك. أتمنى أن تبقى وقتًا بجانبي ولا ترحل . لكنك حتى و أنت بجانبي راحل ؛ أصبح وصف الحاضر الغائب يليق بك. أتمنى أن تعود لتحتويني ، تدفئ ضلوعي ، أن تعود حياتنا شابة ندية، و أن يذوب جليد شيخوختها.

بعدها شردت بخيالها، و عادت تجتر أذيال الماضي الحاضر بآلامه، تستعيد لأيام الأول لرغبته عنها. لم يكن بيتها يهدأ على حال واحده، و لا ترتيب معين للأثاث. يوقن أحد من أصحابها بأنه قد رآه من قبل. فقد كانت امرأة دائمة النشاط متجددة ؛ في ردهة منزلها دوماً تعدل وضع الكراسي و الطاولة ، في كل مرة تجد لهم مكان جديد مختلف. لم تكن الردهة تزيد عن أربعة جدران متوسطه المساحة ، فلا هي بالكبيرة أو الصغيرة جداً. و لكنها امرأة كالفراشة تستطيع اختراع الأماكن لتمارس فيها تجددها و نشاطها. و ما إن يدخل زوجها للبيت حتى يحيل هناء اليوم في قلبها كدرًا، كأن عنائها الذى تتحمله من أجل أن تسعد عينيه عند عودته يذهب هباء.

تشعر بذلك حين يسألها:

- ما هذا ؟ هذه الأشياء ليست في مكانها ؟!ثم يستطرد أنت ليس لديك ما تفعلينه ، يقتلك الفراغ ؛ لذا فقط تشغلين وقتك بأمور كهذه. على كل حال إنها ليست جميلة. أعيدي ترتيبها كالسابق.
تتساءل في نفسها :

- ألا يدرك أن كلمات الرجل حين يثني على زوجته من الممكن أن ترفعها لعنان السماء ، تجعلها تحلق بجناحيها مع الطيور، و أن سوء كلماته يهوي بها إلى الأرض على جذور رقبتها.

كانت الأيام تمر عليهم ليزداد إهماله في معاملتها، و إهماله فى ذاته أيضا. أصبح مدكوكا للأسفل كأنبوب غاز ، ممتلئ الجسد به كرش يتدلى على ركبتيه . لكنها - رغم سأمها من كل تفاصيل حيتهما - مازالت محتفظة برونقها كما الفراشات الملونة. تذكرت كم من المرات سألته أن يعتني بنفسه شعورًا و جسدًا ؟

و كيف كان يلفظها قائلًا :

- إما أن تتقبليني على حالي أو تتركيني و شأني .
تذكرت حين قرر زميلها بالعمل التسلل لمشاعرها ، كيف كان يشغل تفكيرها رغمًا عنها ، كيف يتحرك حولها ، يحاصرها بعينيه ، يشعرها أنها خلقت لتحيا لقلب أجل أنثى أنجبتها الأرض. كان شعوره ذلك رغما عنها و عنه ، فهو لم يكن من ذلك النوع اللعوب. أخذ يفرش الأرض تحت أقدامها زهوراً كي تمر، و لكنها لم تكن تمر إلا مروراً متحفزا ؛ بحكم قرب المسكن و زمالة العمل . فهي امرأة متزوجة ، مشاعرها ليست ملكها ، و إنما ملك النائم في فراشها قلبا و جسداً. و تذكرت كيف مرت ستة أشهر حاصر فيها بمشاعره المتقدة تجاهها أنفاسها . كم كانت تزعق فى رأس النائم بجوارها ؛ كي يشعر بمعاناتها. هي ليست خائنة ، و لكن القلب ليس ملك يمنيها ، ليس ذا بوابة تفتحها فتدخل منْ تشاء أو تغلقها فتحبس خارجه منْ تشاء. فالقلب طائر مشاعره فوق جناحيه . سمعت بأذنيها أنين قلبها مجددًا حين لم

يعرها اهتماما، و كأنما كل تفاصيل تلك الأيام تنساب أمام عينيها انسياب الماء في النهر . تذكرت كيف قررت أن تتخلى عن عملها ، و ألا تخرج من منزلها إلا للضرورة القصوى ؛ كي لا تري زميلها. لكنها ما إن تقرر الخروج من بيتها حتي تشاء الصدفة أن يراها. هو قلبه قد شغف بحب حقيقي لها يشعره بتوقيت خروجها و دخولها ، كأنه يمتلك منبها لمواعيدها يودعه جيب بنطاله ، ما إن يراها - و لو لمرة واحده - حتى تشعل نظراته إليها فى قلبها نارًا.

تساءلت حينها كثيرًا كيف تستطيع تحريك زوجها ليحنو يها؟! هناك أشياء لا يصح أن تقال هكذا صراحة ، و لكنها لابد و أن تفهم حين تصدر لمن يهمه الأمر مغلفة بهالة من الغموض ، فهذا أسلم و أفضل . انتبهت من شرودها ؛ لتجد الورقة التي كانت تخطها مبللة بدموعها كما لو كانت أسفل صنبور مهمل ، فعادت لتكتب و القلم يعاند ليخط حبرًا مشاعرًا فوق الورقة الباكية.

حبيبي لا أخفيك أني بكل ما فى من نبض قد سئمت حياتي. أستمحك عذرًا فقد جهدتك كثيراً ، جاهدت انشغالك ، بعدك و إهمالك ، جاهدت الروتين و الملل اللذين نخرا أحشاءك ، لأجعلك تتفهم أنى أحتاجك حبيبًا و صديقًا ، لا مجرد إطار بل لصور زفافنا .

و الآن - أعلنها بصدق - حتى و لو لم أصارحك بها:

سأعيش معك فقط لأجل طفلينا ، هذين اللذين لم يقترفا ذنبا في اهتراء مشاعرنا ؛ لأجلهما فقط . لأنك أحرقت الزهرة التى كنت أحميها لك طول العمر بداخلي.

احمرت عيناها ، جفت دموعهما ؛ فلم تعد تقدر على ذرف المزيد من الدموع ، ولا حمل رأسها من شدة الاجهاد. نهضت فمزقت الورقة؛ لتمحوا كل ما باح به قلبها. عادت لتدفن جسدها العليل على الفراش بجانبه.

موتٍ على قارب الأحلام

موتى على قارب الأحلام

قرابة السبعين شابًا ، ربما أكثر ، ينحشرون كومة لحم يائسة لا تكاد تُميز وجوههم من فرط ازدحامهم ، تختلط في حشدهم سمرة صعيد **مصر** بلكنة سكندرية **،** يقلهم قارب صغير يعصر أجسادهم . مهاجرون- هم- إلى دولة أجنبية. موصومون من قبل المجتمع بأنهم مهاجرون غير شرعيين ؛ شيء يجعلهم يهزءون كمدًا، و تصرخ دواخلهم من فرط عبث هذا المجتمع متسائلين.

- و هل إقامتنا على أرض مصر إقامة شرعية ؟!

خرجوا تحدوهم الرغبة في الحياة ، تحمل قاربهم الصغير أمواج أحلامهم، يعبث به سماسرة الموت ، و تتلاطم عليه أمواج الحياة.

كانوا جميعا متأهبين في انتظاره - ملك الموت - تراه أعينهم، و تنطق شفاهم بأحلام مهشمة ، يمنون أنفسهم بنجاح أثبتت التجارب أنه قلما يتحقق.

قد كانوا مخيرين بين الموت كل يوم في بلادهم أو الموت في مغامرة هناك بصيص من أمل في شركها؟ فقرروا المغامرة ، و هم يوقنون تمام اليقين أنهم على أكف **ملك الموت**. يشعرني الحوار الدائر بينهم، أن كلًا منهم يتمني لو يربط حزامًا ناسفًا على وسطه ، و يفجر نفسه و أهله جهاً في سبيل الله ؛ فهو قد حبا أرواحهم بالحياة لتصادرها مؤسسات الدولة و سياستها الاقتصادية العاهرة.

هاهو أحدهم يقول بشيء من الخوف ، و يبدو أنها ليست تجربته **الأولى في** البحث عن الحياة:

- **شباب ،** ترى هل سننجح هذه المرة؟

رد آخر شارد الذهن بصوت مسموع:

- أم نكون مثل سابقينا ؟ بعد سويعات قليلة ينتشلنا الغواصون **جثثا عَبِئَتْ بالماء.**

أحدهم :

- يا رجل ، قال الله و لا قالك ، تعشم في وجه الله خيرًا ، لا تزيدنا **خوفًا على خوفنا ؛** فلدينا جميعاً ما يكفينا.

- و نعم بالله يا أخي **، لا تؤاخذني.**

تدخل آخر، و شئ من شرار الطموح يلمع في عينه.

- أتدرون يا شباب حينما أصل ، و أجد فرصة عمل مناسبة. **سأبعث بنقود إلى أمي ؛** كي تبنى لبيتنا سقفًا، و ألحق أخي الصغير **بالمدرسة .** كنت أتمنى أن أفعل عندما كنت صغيرا **،** لكن لا بأس إن كنا نحن الأربعة لسنا متعلمين ، فيكفينا هو. إلى الآن لا أستطيع نسيان أن أبي مات مقهورًا لأنه اقترض خمسمائة جنيه، و بصم على خمسة آلاف جنيه **؛فحبس** ظلمًا و مات قهرًا. لم يكن لدينا ما يكفى و لو لسداد ربعها **،** حتى أتعاب المحاماة لم نقدر على دفعها، وحينما طلب أبي الترافع عن نفسه ؟ أجابه القاضي بأن له و أمامه **أوراق ، و حتى** لو كان ما يدعيه **حقًا** فالقضية محسومة **؛فالقانون** لا يحمي المغفلين.

تلقف أحدهم الكلمات من على شفاهه.

- القانون لا يحمى المغفلين ،ها ها ها (المفتحين) لا يحتاجون لحماية من قانون أو غيره، و على هذا فالقانون فى بلادنا **روحٌ** كسولة لا تستطيع حماية **أحدًا.**

تدخل آخر بإحباط كاف لأن يسد الدنيا في عين كومة اللحم البشري على القارب بأسرها.

- **أما أنافلا أحلم** بشيء على الإطلاق. فقد صرف والداي دم قلبهم على دراستي، و تخرجت لأكتشف أن كل ما تعلمته كان هراء في هراء و أن سوق العمل كما سوق العبور . تظل تعمل كما الحمير طوال اليوم في جر العربات، و تجد أن كل ما تتقاضاه تصرفه على **المواصلات**. حتي حبيبتي ، انتظرتني أربع سنوات بعد تخرجنا ، ثم سئمت هي الأخرى من الانتظار، و قررت ان تشق طريقها. هم أن يخبرهم أنه التحق بهم باحثاً عن الموت ، لكنه **اثر الصمت**.
ربت منْ كان بجانبه على كتفه قائلا:

- يا أخي ارم وراء ظهرك . أين أيامٌ كان - بها- الأهل يرددون أنهم يشترون لابنتهم رجلا؟!اليوم أصبحوا يشترون كل شئ و يبيعون **الرجل**. لا تشغل بالك فهم الخاسرون.

حينها رد عليه هازئًا :

رجلا ! هم ليستطرد في السرد لكن الوقت لم يسعفه ، و لم يسعفهم جميعًا . سمع الجميع صوت صفارة ما ؛ فسره صحب القارب بانها لخفر **السواحل ، اقترب صوت الصفارة أكثر ،** هم قادمون إليهم لا محالة .

ازداد المشهد على القارب **اختلاطا و ارتباكا وسرعة و** عنفا وصخبا ، فكر بعض الشباب في الإفلات ؛ قذف بجسده في الماء . روحه تحاول النجاة من الوطن و الموج ، هناك من وقف مشدوها يكذب أذنيه، و من أيقن أنه سيجد رغيف العيش و قطعة جبن لا تكفي لمأرًا في زنزانة رسمية بمصر، فالزنازين غير الرسمية ليس بها من طعام . ازدادت حركة القارب **اضطرابا ،** ظل يتمايل يمنة ويسرة .

خيـــالات فزعه

خيـــالات فزعه

هـي فتـاة فـى العشـرينات ، واثقـة جـداً فـي ذاتهـا ، ثابتـة الخطـو ، مرفوعة القامة و شامخة الأنف ، كانت من ذلك النوع الذي يجعل الجميع يعتقدون بسهولة فى شجاعته، و أن لها قلبا لا يطوله خوف أبدًا. لكنها على الرغم من كل ذلك تخاف الظلام ، و تخاف الوحدة في الأماكن المغلقة نهارًا. كان يومها غايةفي الصعوبة و الطول ، شعرت بثقله ، و كأنما هي تحمله على صدرها ؛ حينما تركها جميع أفراد أسرتها، و خرجوا لأداء واجب العزاء فى قريب لهم . غابت عنها الأنفاس الآدمية التي تؤنس وحشتها، فحاولت أن تشغل نفسها - لوقت ليس بالقليل - مع أصدقائها ، لم يكونوا قاطنين لذات لمنطقة ؛ لذا استعاضت عن وجودهم الفعلي بوجودهم على الهاتف . بداخلها كان في حاجة لصوت آدمي تعرفه ؛ فصوت التلفاز و الكاسيت مع لفراغ يوحشان صدرها أكثر . كانت تطيل المحادثات الهاتفية على عكس عادتها، و لكن مهما طالت المحادثات لابد لها من نهاية، فرغت جعبتها من الحيل ؛ فلدى أصدقائها أعمال من المفترض أن ينجزوها.

تركوها بمفردها ، الشفق ينحسر ناحية الغروب،وحفيف الشجر- حول بيتها الواسع - يصنع صوتًا مرعبًا مع الهدوء المميت بداخله . نهضت من مكانها،فقلبت المنزل بأسره ، حجرة تلو أخرى ، منادية بأسماء أفراد أسرتها ؛ علّ أحدهم يجيبها. كانت تشعر بأن هناك رفقة ما ، رغم يقينها التام بأن لا أحد من أفراد أسرتها بالمنزل!

كانت تلك محاولة يائسة منها لإيجاد تفسير منطقيً لما تسمعه من أصوات وحركات رشيقة حولها، و لما لم تجد تفسيراً منطقي ؛ قررت أن تفعل شيئا لا معني له، و أيضا لا حاجة لها به. لكن ذبذبات الخوف بقلبها، و ذلك التنميل الخفي الذي يسرى في أطرافها ؛ قاداها لتحتسى كوبًا من الشاي في الردهة المؤدية إلى المطبخ. كانت تتبعها أنفاس مضطربة، ظل لجسد

ما، و ثمة يد خفية ربتت على كتفها الأيمن ؛ أحستها فاهتز بداخلها هزة هلعة. استدارت لترى منْ خلفها ؛فازدادت رعباً فوق رعبها ، و ارتج قلبها خوفًا لم تجدشيئا على الإطلاق!. استعادت رباطَ جأشها ، استعاذت بالله، في المطبخ وقفت لتعد كوب الشاي على مقربة من حمام المنزل، كان صرير بابه غريبا جدًا ؛ الهواء يجعله يترنح ذهابًا و إيابًا كالمخمور.

استدارت و كأنما هي تشحذ من قلبها الإيمان، و أخذت تنطق ثلاث مرات بصوت مسموع :

- لي عمر واحد و رب واحد ؛ لن يصيبنى ضرر إلا بإذنه.

ثم جذبت بلب الحمام فأغلقته بإحكام شديد ، استمر ما خلف الباب ؛ و ما يحدث بالبيت كله سر خفي . حملت كوب الشاي الذي أعدته، عادت لغرفتها، وضعته على مكتبها و جلست على حاسوبها ، مكتبها تستند مقدمته للحائط ، و هي تجلس خلفه على الكرسي ظهرها للفراغ. حفيف الشجر يعلو، و الليل قد جن ؛ أحست بالرهبة أكثر ؛ همت لتحمل حاسوبها الشخصي لفراشها، تستند إلى الحائط ؛ لتشعر و كأنه دعامة تصلب عودها. إلا أن الكهرباء لم تمهلها لطفأ مصباح غرفتها و مصابيح المنزل بأسرها. أصبح الظلام حولها حالكًا، شهقت بصخب و فزع، و قشعريرة مبهمة أخذت تسري في جسدها . تحسست طريقهاللفراش ، كان غطاؤها معدا عليه، قررت أن تدفن جسدها الهش تحته ؛ لئلا تأكلها رياح الخوف، تلك التي تجتاحها من شعر رأسها حتى أخمص قدميها. ببطء و فزع بدأت تستجيب لنوم الخائف المجبر. ثم أخذ الغطاء ينحسر عن جسدها شيئا فشيئاً. لتفيق على ظلمة الحجرة ، لتجد أناسًا كثرا لا تعلم من هم ، يلتفون حولها، و غيرهم يدلفون من باب حجرتها. الحجرة متكدسة بأجسادهم على الرغم من ذلك تستوعب المزيد بلا نهاية. كان دم متجلط أزرق اللون يعلو قسمات وجوههم ، ها هو عالم كان تخافه في خيالها ، تجسد واقعا حولها ؛ أصيبت بفزع شديد ، ارتفع صوت صراخها ، فإذا بهم يقتربون منها أكثر، نبض قلبها يتلاحق مشرفًا على السكون للأبد . لا تدري هل هؤلاء لصوص أم

أشباح؟! لشتد الخناق على روحها أكثر فأكثر حتى كادت تُزهق حين رأتهم يجتمعون على فتاة منهم لها نفس قوامها ، هيئتها ونفس ملامحها فيقتلونها، و يمثلون بجسدها. راحت تتحسس جسدها المتجمد و ملامح وجهها بأطراف مرتعشة ، إنهم يقتلونني ، هبطت يداها إلى صدرها فاحتضنت نفسها و هي ترجف أنفاسها تهبط و لا تعلو تكاد تختنق، لا تصدق ما تري. يقتلها الخوف ، تحاول الجري ، الهرب ، لكن لا مفر ؛ جسدها متثاقل للأسفل ، لا تستطيع الحراك قوة خفية تجذبها للأرض ، يشتد صراخها أكثر ، لكن لا أحد يسمعها، و حفيف الشجر مازال يتعالى يقع صداه عليها مخيفًا.تحرك رأسها يمنة و يسرة ، تتمني أن تتغير المشاهد التى تراها لكن دون جدوى . وفجأة تضع أمها على وجهها ماء لتوقظها.

سجـن العقل

سجـن العقل

مـرت عليـه سنوات الغربـة ثقيلـة، طويلـة و ملبدة بـالهموم. نخـرت عظامـه ، هزمـت كيانـه ، جعلـت جسده يبدو كمـا لـو كـان متـآكلاً ، لكن هذا الجسد المتآكل ما كان سوي إطار للقلب الذي اهترأ على مر هذه السنوات ؛ كان من شدة شوقه لثروته البعيدة . حفنة تراب الوطن التي نبت منها جسده ، ينثر حنينه على كل ما هو مصري أو يمت للمصرية بِصِلَة. فهو يهرع خلـف أغـاني أم كلثـوم و عبـد الحلـيم ، مقـالات الصـحف، بـرامج المسـاء المصرية ، رسالة قصيرة تأتيه من صديق بالقاهرة فيخبر بها الدنيا، كل شـيء - مهمـا كانـت بسـاطته - كـان يمنحـه فـي غربتـه السـلوى. كـان مـن الطبيعي جداً بعد عودتـه أن يحن لرؤية مكـان عملـه الـذي قضـى بـه سـنين طويلة من عمره.

قـاده حنينـه هذا للمدرسـة التي كـان يعمـل بهـا - رغـم أنـه قـد أحيل للتقاعد منذ ما يقارب العشرين عامًا - فقد اشتاق لرؤية أصحابه ؛ فالشباب منهم لم يحالوا بعد للتقاعد ، اشتاق لرؤية تلاميذه على الرغم أن من كانوا بالمدرسة حينها، لم يكونوا تلاميذه بالمعني الحرفي للكلمة، لكن قلبه الذي بذل نبضه في تعليم الأجيال كل قادرًا على الاحتواء ؛ كان يخال أن كل طالبِ علم في الدنيا تلميذاً من تلامذته ، لم يكن يفرق بين وجوههم أو أسمائهم. يكفيـه أن يـراهم يحملـون حقـائبهم المدرسـية علـى ظهـورهم أو جالسـون ينصتون لمعلم ما في الصف. ها هو يقترب من مدرسته ، صرح تعليمي عتيق ، يمتد بطول الشارع الرئيسي في البلدة، و هكذا كانت من يوم أنشئت تستوعب من التلاميذ عددًا لا حصر له. لكن هاله ما رأي من عظم سورها؛ سرت في جسده رهبة ما أشعرته أنه سور لأحد السجون، رائحة طلاء حديث عليه كانت تنهش قلبه و هو يتجه لبوابته. تشعره بالوحشة و الغربة من جديد، و سؤال حائر ظل يطرق طرقاً عاتياً على جدران قلبه.

- كيف لمدرسة أن يحيطها سور كهذا ؟!

إنه يتقارب فى الارتفاع مع ذلك المحيط بقلعة الجبل، حتى في عظم بوابته ، إنـه سور لسجن ، معتقل منْ بداخلـه و طليق من بخارجـه.جعلتـه الوحشة التي أحسها يتساءل مراراً و تكراراً.

- هل أصبح التعليم غير مرغوب فيه إلي هذا الحد ؟!

خرقت أذنيه كلمات القائم على بوابة هذا السجن المغلقة حين طلب منه أن يفتحها كي يستطيع الدخول.

- لا أستطيع فتحها الآن إنها أوامر و تعليمات.

مضى ما يقارب ربع الساعة، هو مازال خلف هذه البوابة، و يتجمع حوله من العاملين بالتدريس أناس كثر - لا يعرفهم - على الرغم من حفظه لوجوه بعضهم.

و تُفتح البوابة ، ليجد نفسه بداخلها رغما عنه ؛ بقوة دفع الجمع المتراص من حوله. أخذ نظرة كلية على الحديقة الأمامية كم كانت مهملة!، كل ركن من أركانها بدا و كأنه مقلب للقمامة مستقل بذاته ، و قد غابت عنها كل أشجارها، ثم قرر أن يعتلى المبني التعليمي ، كان يصعد السلم، حذائه يخبط في أجساد التلاميذ المتراصين على الجانبين ؛ فيعتذر، ثم تجول فى بهوها الشاهق الارتفاع جولة هادئة الخطو - لا البال - يلقى فيها نظرة على الصفوف من نوافذها الشفافة ، بعضها لم يكن بها من تلاميذ ؛ فقد كانوا ما بين غائبين و نائمين و هاربين على السلم، و البعض الآخر به بعض تلاميذ يعبثون ، البعض يلعبون الورق، و آخرون ينفثون سجائر سويا ، يتبارون في حبس أكبر قدر من دخانها؛ كي يخرجونه من أنفوهم؛ لأنه ليس هناك من معلم برفقتهم. أصابه المشهد بالفزع ، فقد أفنى عمره في أكذوبة ، شعر بعدها بضيق في صدره و أنفاسه ؛ فقرر العودة من حيث أتي.

أخذ يهبط السلم متجهاً للبوابة.

كان التلاميذ المتراصون على السلم ، قد قل عددهم إلى الثلث تقريبا . شيء جعل بصيص أمل يتخلل قلبه الهرم ، فلا بد أن الآخرين قد ذهبوا لصفوفهم؛ كي يتابعوا دراستهم ، لكنه ما إن هبط حتى رأى تلاميذ كثيرين مجتمعين أمام البوابة ، لا يكاد يربو عمر الواحد منهم على الستة عشر ربيعًا . رغم ألمه لاغتصاب العمر فقد أشفق عليهم – هم - ضائعون رغما عنهم لا بإرادتهم ،انتظر قليلًا، فلملم المسئول عن البوبة أوراقًا بيديه، و ذهب لمدير المدرسة قائلا:

- هناك مدرسون خلف البوابة ؛ يجب أن نفتحها كي يمروا.

و أصدر الأخير له الأمر بذلك. خلف البوابة كان يتجمع مدرسون من جميع الأعمار وصلوا متأخرين. و بدا المشهد في عين المدرس الكهل مقيتًا لعينًا و عيناه تنتقل ما بين الهاربين الكبار و الصغار ، كأنهم يتزاحمون في حفلة ، تتخبط أجسادهم وأكتافهم بعضها بالبعض ، وأحيانا تلحظ عين أحد المعلمين طلابا بعينهم فيحيهم؛على موعد باللقاء بعد انتهاء اليوم الدراسي!

الدجـــــالة

الدجالة

تمر الصغيرة قرب بيت جارتها ، عروس لم يكن قد مضى على زواجها سوى خمسة أشهر ، تلقفت أذناها صونها الصاخب ، كانت تلعن الأيام التي رمت بهذا الزوج في طريقها ، و سرعان ما مرت أحداث ذلك . يوم قضته مع جارتها منذ ما يقارب العام ، أمام عينيها مرور شريط سينمائي. كانت جارتها فتاةسمراء متوسطة الطول ممتلئة بعض الشيء، في نظراتها ثمة غموض مبهم. توجهت ذات يوم لمنزل جيرانها، و طلبت من ابنتهم الصغيرة الذهاب معها إلى مكان ما؛لأنها تريد من يؤنس طريقها.

لم تستطع الصغيرة أن ترفض لها طلبًا ، كانت وقتها في الثانية عشر من العمر بالتقريب نصف عمر الأولى. راحا يمضيان بطريق زراعية ضيقة متلوية طويلة جدًا، وسط محاصيل و زروع كثيرة. الطريق خاوية من الأحياء حتى الحيوانات، فلا شيء يتنفس الحياة على طول الطريق سوى الخوف. أوراق الأشجار على جانبي الطريق تتساقط عليهم ،ترهبهم، و يوحش خريف الجو مشاعرهم. طالت الطريق، و زادت رهبة الصغيرة الأمر فسألت جارتها بفضول طفلة.

- إلى أين نحن ذاهبتان ؟!

حينها لم تعر جارتها سؤالها اهتمامًا، و لكنها نظرت إلى ذلك (الكيس) الأسود بحوزتها نظرة طويلة، أتبعتها بتنهيدات عميقة ، أحلام فتاة شابة تعتلي في أحشائها ، كانت أحضان رجل بعينه كانت تخيل لها في تلك اللحظة. لم تستوعب الطفلة وقتها شيئاًمما حدث ، فشتان ما بين أحلام الطفولة و الأنوثة ، غير أنها كانت في حاجة إلى جواب يروي ظمأ فضولها ؛ فألحت في السؤال. حينها هبطت الجارة إلى الأرض لتكون في مستوي ارتفاع الصغيرة عنها، و كأنما – هي - تأخذها على قدر عقلها و طولها سوياً.

- حسناً.. سأخبرك بالحقيقة لكن عديني ألا تخبري أحداً.

أحست الصغيرة بسذاجة طفلة أن عليها أن تبذل الوعود لتعرف الحقيقة.

- أعدك بذلك، و لن أخبر أحداً..مهما كان.
- سنذهب لشيخه تصنع الأعمال.
- أية أعمال؟!
- الأعمال تلك التي بها تتحقق الأماني ؛ حتى أستطيع أن أتزوج من محمد.

بدأت الصغيرة بعقلها الأبيض الذي يشبه في نصاعته ندي الصباح على الزروع تحطم لها هذه الأماني.

- هذه كلها خرافات لاشيء منها صادق على الإطلاق.
- كفى عن هذا الكلام حتى لا تسمعك الشيخة فتسخطك قردة.
- قردة ! كيف تسمعني، و هي ليست معنا ؟!
- هى قادرة على أن تسمع حديث القادمات إليها فى الطريق، و قد طردت زوجة أخي قبل ذلك من حضرتها، و أسقطت حملها لأنها وصفتها بالدجالة.
- على أية حال- أنا- لا أصدق هذا الأمر.
- أنت حرة فى ذلك ، لكن لا تتطرقي بالأمر مطلقاً.

صمتت الصغيرة على مضض، و سارت مع جارتها تطويان الطريق تحت أقدامهما طيًا ، لم تكن الصغيرة تتهيب الطريق وحده بل كنت تهاب أيضا جارتها، و قد جالت بخاطرها حينها كل الإشاعات التي كانت تسمعها عنها، و يلوكها أهل المنطقة كالعلكة في أفواههم ، كانوا يقولون أنها ممسوسة بالجان، أنها تفزع من نومها في قلب الليل ، تهجع للحقول المحيطة , تجري فيها ، تبتعد كثيرا ، تظل تصرخ ، يشتد صراخها، تتفوه بكلمات غير مفهومة بصوت أجش، و تظل كذلك حتى يعيها التعب ثم تسقط. فيعود بها أهلها إلى البيت، و هم خجلون وجلون مما حدث، لأنهم يدركون أنهم صبيحة اليوم التالي سيكونون حديث القاصي و الداني.

الخوف كان ينهش في قلب الصغيرة من كل شيء و أي شيء ، حتى هفيف الرياح في شعرها . ذلك اليوم كان يجعل القشعريرة تسري في جسدها قبل أن تنتهي الطريق، كانتا أمام بيت ذي ثلاثة طوابق معزولا عن الدنيا بما فيها و منْ فيها.

ينقبض صدر الصغيرة وهى تتقدم ناحيته، و تري طفلين أمام البيت يلهوان. ضميرها المتوجس يشعرها أنهما ليسا من البشر ، ليسا من الأحياء، و كأنما بخيال طفلة تجسد إليها العالم السفلى فوق الأرض. توجست من الجميع خيفة ؛ حتى ودت لو أنها نائمة يراودها كابوس مفزع ، فحلمت بالصحو لكن يبدو أنه لا مفر. يحتلها الخوف أكثر؛ تشعر بأن المكان بأسره ممسوس بالجان ، تنميل غريب يسري في أطرافها فلا تدرك هل هذا إحساس حقيقي أم أنه إيحائي فقط ! .

تسلم الشابة على امرأة فارعة الطول ممتلئة الجسد ،ثم تعلن رغبتها في أنها تحتاجها في طلب ما. فتجيبها المرأة، و قد كانت ترتدي أثناء جلستها أمام المنزل زيًا بلديًا مزركشًا لكنه - على الرغم من ذلك - أنيق جدًا.

- يا أهلا و سهلا.

ثم أمرتهما بأن تقصدا البيت من بوابته الخلفية، و تدلفا إلى الحجرة فى مستهل الردهة فتنتظرانها.

كانت الشابة تعرف البوابة الخفية للمنزل. اصطحبت الصغيرة، و مضت إليها. البيت محاط بسياج نباتي من أشجار الجازورين و الكافور، و بعض أشجار متساقطة ذرفت أوراقها دموعًا على العقل. بالفعل دخلت كتاهما إلى الحجرة و انتظراها، و بعد عشر دقائق تقريباً حضرت إليهن و قد بدلت بثيابها عباءة بيضاء و حجابا من نفس اللون طويلا يغطي حتى أسفل صدرها ، و بيديها مسبحة خضراء طويلة كبيرة الحبات.

جلست إلى منضدة منخفضة الطول ، تناولت مصحفًا كبيرًا كان يستقر على حامل خشبي قديم ثم أوقدت نارًا في إناء كآنية فحم الشيشة، و قذفت عليها بضعًا من البخور ، بعدها شهقت شهقة عميقة. تصاعد دخان ذو رائحة غامضة غلف فضاء الحجرة ، ثم جذبت حجاب رأسها من الخلف لتغطي به وجهها.

و أخذت تصدر صوتا رجوليًا خشنًا . يتعالى الصوت شيئًا فشيئا، ثم سألت الشابة عما كانت قد طلبته منها فى المرة السابقة؟

- أحضرت لي على شئ من (أثره)؟!

و أومأت الأخرى بأنها أحضرته .

و حينها فكت رباط (الكيس) الأسود ذاته التى كانت تحمله طوال الطريق،و قلبها مع عقلها و تنهيداتها متعلقان به. كان به جزء من (فانلة) رجالية داخلية . لم تكن الصغيرة تدري ما هذا الشيء بالضبط. أخذته المرأة منها، و شرع الصوت الرجولي الذي تصدره يتمتم بأشياء مبهمة. في النهاية أمسكت بقلم جاف أحمر و ورقة ، و أخذت تخط مربعات عشوائية فى مستطيلات ممزوجة بكلمات لا تدري لها لغة بعينها من فرط تشابكها، ثم لفتها على بعضها بطريقة ما ، وضعتها بداخل (جراب) صغير، و منحتها للشابة ثم أخذت تسوق لبضاعتها المشبوهة.

- اطمئني و الله لن يكون لغيرك - أنت تعرفينني حين قسم - فليست هذه أولى زياراتك لي.

- طبعًا طبعًا يا ست الشيخه، و لن تكون الأخيرة.

بعدها أخذت المرأة تنهي الحديث مسرعة كأنما هي تعطي من وقتها على قدر ما تقاضت من أجر قائلة.

- انقعيها بالماء عشر دقائق، و اجعليه يشربها.

سألتها الشابة متخوفة علي حالتها .

- **ألا أواري الماء في شئ ما ؟!**

- **بلى ،** فلتستعملي ماء نقعها في عمل الشاي أو العصير كي لا يعرف بالأمر، و لا تخافي فلن يبطل مفعولها.

أخذت منها الشابة الورقة و مضت في طريق العودة سألتها جارتها الصغيرة.

- ماذا يعني (**الأثر**)؟

فأخبرتها الشابة بدورها أنه شيء، أي شيء يكون الشخص المقصود قد ارتداه أو استعمله. مازالت الصغيرة تتذكر جيدًا كم ظلت الشابة جارتها تجاهد و تعاند الجميع كي ترتبط بالرجل الذي تحبه، فقد حاربت - من أجله - بالعقل و الحمق مجتمعين. كانت تتصارع في معركة كفر بالقدر و إيمان بالحب فشلت في نهايتها و تزوجت منه.

كلـــنا سجناء

كلناسجناء

أسوار عالية عاتية، بوابة لا تقل في قوتها و صلابتها عن تلك الأسوار، كلب شرس يسيل لعابه مختلطًا بدماء لحم ما، و حراس تختلط ملامح الغلظة على وجوههم بالسمرة ، بالظلم ، فيحوقل جميع منْ يرونهم قائلين.

- لا حول و لا قوة إلا بالله، سحنهم مقيتة من أكل السحت.

على الجانب الآخر أناس كثر لا يتفقون على ملمح يميزهم ، يختلفون لهجاتٍ و أزياءً و قلوبا ، تجمعوا من أطراف مصر، و لم يستثنَ من جمعهم طين الدلتا ، يفترشون مقاعد إحدى الكافيتريات ، تنفذ رائحة بول تراكمت من حمامات مسجد خلفهم ؛ تجبر الجميع على الغثيان.

إنها السابعة صباحًا ، يتبارون جميعا للحاق بموعد الزيارة الأولي كي يتسني لهم رؤية ذويهم . فيقفون في طابور لا يناله من وصفه شيء. يقدمون بطاقات هوياتهم ، و يدلون بأسماء من يصطحبونهم للقائمين على الزيارة ثم يعودون لمناعدهم من جديد ، ينتظرون صوتا في مكبر يزعق باسم سجينهم فيهرعون حاملي كل ما ابتاعوا له من غذاء، كساء ،غطاء وهواء المزاج (السجائر) . هنا يتعالى صوت كهل لاعنا إدارة السجون بطول مصر و عرضها، و يقسم إنه في سجون الكويت لا يكلفون الأهل شيئًا بلهجة تبدو كما لو كانت لواحد من أهل سيناء.

على بعد حوالي عشرة أمتار في نفس مكان الطابور الأول ، يظهر منْ هرعوا خلف صوت المكبر، و يُكرر الصوت اسم لسجين بعينه مرتين رجب عبد الغني ، رجب عبد الغني.

تجيب الصوت سيدة في الستين من عمرها ممتلئة الجسد ، ترتدي جلبابًا أسودَ مكشكش الذيل و الأكمام ، حافية القدمين.

- نعم يا ابني؟ أنا أم رجب.
فيجيبها الصوت في المكبر.

- رجب أترحل يا حاجه لمصر (القاهرة) . هكذا تعارف على مسماها سكان المحافظة.

و ما هي إلا وهلة حتى يتهاوي جسد السيدة العجوز على الأرض و تصرخ بصوت يختلط فيه الحزن بفراغ الصبر بالبكاء بثقل الحمل بالفقر و الاستعطاف لقلوب التفت حولها فور سقوطها قائلة.

- حرام

تكررها باكية ضاربة بيديها على فخذيها حرااام ، حرااام من الشرقية لهنا سفر يا أخواتي، و ارجع من غير ما أشوفه. سرقوني في القطر(أجيب منين يا ناس و أروح فين) ، فتهرع قلوب اجتمعت حولها : بعضها رقيق، و الآخر غليظ يتصنع الرقة ، أخذ بعضهم يبتاعون لها أشياء له من باب المساعدة، و الآخرون يستدرجونها ؛ كي تروي لهم عن ما مرت به في سفرها، و ما وراء وجود ابنها فى السجن من باب التسلية.

خلفهم مباشرة أناس نودي باسم سجينهم ، يدخلون من باب صغير، و تمر كل (أكياس) البضائع التي ابتاعوها على آله لكشف المعادن، و يمر للداخل من لم يحز منها شيئا ، فمن حاز معادنَ أمر بإفراغ ما يحمل، ثم يخرجون ليمروا ببوابة حديدية شاهقة متسعة , سمح بالمرور من باب فيها لا يساوي ربع حجمها ، و على هذا الباب الضيق الرجال يتراصون واحدًا تلو الآخر، يفتش أزيائهم و أجسادهم . و تعتلى النساء حجرة صغيرة لا يدخلها سوي بصيص من ضوء ، و تفوح منها رائحة عفن يمر القائم و القائمة بالتفتيش على أجساد الزائرات مروراً قمئا ، بدءًا من الأذرع

وانتهاء بالأعضاء الجنسية لمساً و ضغطاً. يمر الزائر إذا مر من هؤلاء **بسلام** فيكون عليه أن يمشى عشرات الأمتار حاملاً حاجياته ليصل إلى طرقة يفترشها بعض الزائرين المنهكين قلباً و قالباً، أمروا بتفريط حبات البازلاء، و بعضهم يفعل مع حبات الفول السوداني أو **التمر**. في نهاية الطرقة **تتراص** أربعة من المناضد الصاج كبيرة الحجم و يجلس علي أطراف كل منها رجلان في زى مدني. و هنا يأتي دور الفحص اليدوي ، يفرغ الزائرون جميع ما يحملون على المنضدة ، و يبدأ الرجال في الزى المدني في فرزها علبة بعلبة هذا إن كانت سجائر ، أو تكسيرها و تقطيعها واحدة واحدة **إن** كانت من جاف الطعام . و حين يلوح فيما حملوا معهم الأكل المطبوخ تبدأ مرحلة(العك)، فيضع القائم بالفرز يده بكاملها في الطعام و يظل يفتش عن **شئ ما** كمن يبحث عن إبرة في كومة قش ؛غالبا ما يكون نوعاً من المواد المخدرة ، ربما يجده ربما لا. و تنتهي مرحلة الفرز فيتوزع الزائرون ينتظرون سجناءهم خلف **أسلاك مزدوجة** ، يبعد أحدهم عن الآخر بما يقارب نصف المتر. تحين لحظة خروجهم من العنابر ينفتح باب صغير، و يخرج منه ما يقارب الخمسون رجلاً في لباس كحلي اللون ابتاعه ذووهم. يركضون خلف الأسلاك في مشهد تعد البهيمية وصفًا هينًا علي مثله. ليسوا وحدهم سجناء من أتو لزيارتهم أيضًا يشعرون أنهم كذلك ، سجناء في بيوتهم، منطقتهم، غلافهم الجوي، و وطنهم.

الأصوات تتعالى و تكاد العقول تنفجر من شدة الضجيج ، يختلط المشهد و يتصارع كما لو كان لسفينة تغرق ؛ هناك من يبكي، من يضحك، من يدعو الله، من يسب الدين، و من يرسل قبلات لخطيبة أو زوجة حديثه **عبر السلك المزدوج**.

تمر عشر من الدقائق يتصارع فيها سجناء الخارج على مكان صغير يحوي أجسادهم كي يكونوا على مقربه من سجين الداخل ، فيستطيعون سماعه. تدق صفارة نهاية الزيارة ، ينفتح باب العودة للعنابر، و يطلب من الجميع أن يغادروا . **الجند** بأسره يسترق الدقائق، دقيقة أو اثنتين لإطالة

بقائهم ؛ فعشر من الدقائق لا تكفى شيئًا. تدق الصفارة من جديد ، فيسترقون دقائق آخري ، ثم يأتي أحد الرجال في الزى المدني ليجليهم.

حينها يخرج الجميع يلتقطون من على دكه خشبيه بالمدخل بطاقات هوياتهم.

الدنيا...تلاهى

الدنيا...تلاهى

شتاء غريب ليس ككل الأشتية ، دائما كان يكفيها معطف جلدي كي تشعر بالدفء. لا تتذكر يومًا أنها قربت نار المدفأة. لكن هذا الشتاء مختلف تحس له وعورة و صقيعاً في القلب يفت عضدها و يَضائل رغبتها في الحياة، رغم أنها دوماً على مقربة شديدة من المدفأة.

أخذت تقول في نفسها.

- ربما هذا طبيعي ؛ لأني بلغت سنًا كبيرة، ثم تعود فتومئ برأسها كي تطرد هذا الخاطر، فقد أدركت أنه ليس السبب الحقيقي وراء مشاعرها المغدور بها المغتالة.

- لا ليس هذا لكبر سنى ؛ لكن لأنى وحيدة ، مهملة و بالية. فقد رحل زوجي الذي كان يملأ الدنيا حولى ضياء، و يحيل أيامى بأسرها ربيعًا ، رحل دفؤه الذى كان يذيب جليد أيامى ، ذراعاه الحنيتان ، صدره الندي. فرغم نضارته التى ظل محافظاً عليها حتى انتزعه منى الموت ، و رغم مرضى الشديد لم يشعرنى يوما أنني انتهيت . آآآه آآآآآآه ، أذكره الآن، هو قادم إلىّ بعد أن روى زهور حديقة منزلنا الصغير، يحمل بيديه زهرة بلدي وردية اللون - لم تتفتح بعد - مضمومة كأسها كان يتقن لغة الورد؛ حالها تلك تبثه الأمل فيمنحها لي و هو يتمسح بوجهي كقط لطيف يتمسح بوليفته قائلاً.

- حبيبتي وردتك التي تحبينها.

بعدها يمسك براحتي التي نفرت عروقها في قبح تعلن عن شيبى، يلامس بها وجنتيه يداعب بها شفتيه ثم يقبلها، و يضمني إليه. آآه ذهب و أخذ معه آخر قلب في هذه الدنيا كان يكترث لى.

فها هم أولادي ، قد رحل كل منهم إلى مملكته الصغيرة ، لم يعد واحدٌ منهم يذكر أن لـه أمـاً يؤويهـا بيـت نـاء علـى أطـراف المدينـة، حتـى حـين أسألهم:

- لما لا تأتون لزيارتي ؟!

لا ينطق أحدهم - حتى مخادعا لي- و يقول يا أمي كنا سنأتي البارحة لكن ثمة أمر طارئ أعاق مجيئنا. بل يقولون يا أمي هي الدنيا تلاهى! تعجب كيف يفكرون بهذه الطريقة؟! هل معهم حق ؟! ألم أكن بجانب أمي حتى سرقها الموت. أتذكركم هلعي حين رأيت شجر الأمومة في منازل صديقاتي تتساقط أوراقه واحدة تلو الأخرى؛ فمكثت تحت قدميها كأنما صارت معبودتي ، سجلت ضحكاتها ، ارتشفت دمعاتها، كنت أمر على فراشها حال نومها أضع أصبعي أمام أنفها لأجدها تتنفس الحياة فأحمد الله و أشكره .كنت أود لو أن للأعمار عقوداً و تسجيلات فأتنازل لها عن عمري؛ كي لا تعاقبني الحياة بحرماني رؤيتها.

ما هذا الزمان الغريب ؟!الآن نحن نربى ، نسهر ، نداوى ، نكبر ، نعلم و نزوج بعد ذلك نمضي،وكأن دورنا في الحياة قد انتهى عند هذا الحد .

قد أموت هنا، و تتعفن رفاتي و أولادي لا يدرون بمن روحها في الآخرة، و جسدها مسجي على كرسي في بيت ناء.

آآآه يا عمري لكم أنت أطول من السنة الضوئية تمر ثوانيك كالسنين لا تنتهي.

فقد هرمت حتى أصبحت مهملة. لم يعد من أحد يهتم لأمري أو يذكرني ، حتى قطتي العجوز سئمت مني هي الأخرى، و أنا مللتها مللت كل شيء ..كل شيء ، فماذا لي و من بعد ذلك يا إلهي ؟!

استفاقت من شرودها فجأة ؛حين سمعت صوت قرع على باب منزلها ، يعلو شيئاً فشيئاً.

فأجابته بصوت متهالك، و جسد أكثر تهالكا:

- انتظر قليلا يا منْ بالباب ؛ فما من أحد غيري هنا، و قد أخشنت مفاصلي ، فمن أين بالسرعة؟!

و ببطء ذهبت لتري من بالباب، قد جالت برأسها الظنون. أخفت تمف قلبها ، و نفسها المشبعة بالوحدة بضمة من حشاها الممزق كل في مكان. تقول في نفسها:

- ربما سميه و زوجها جاءا ليرياني ، أو أحمد و أطفاله ، لا بل هي مريم ابنتي الجامعية جاءت لتقضى معي عطلة نهاية الأسبوع هذه المرة، و لكن كيف لأحدهم أن يأتي فى هذا الجو العاصف ، شديد التقلب ؟! لو أخبرني لمنعته ، ربما لهذا لم يفعل و أتي فجأة، و ما إن وصلت إلى باب منزلها و فتحته.

حتي أتاها صوت رخيم و امتدت يدا صاحبه تمنحها قطتها العجوز ، مبللة يرتعد جسدها من شدة الصقيع ، مستفسراً:

- أهذه القطة لكم يا سيدتي ؟!

- نعم يا بني.

- اعذريني ،قد وجدتها مبللة تئن في الصقيع ؛ فأشفقت عليها.

شكرته ثم أخذتها منه و دلفت، فوضعتها بجانب المدفئة كي يستعيد جسدها المتصلب الحياة من جديد، ثم أخذت تنظر إليها، و الحسرة تجتاح قلبها الهش تُسائلها:

- حتى أنتِ أردت أن تهربي ممن رعتك - مذ كنت قطعة لحم يستطيع أن يغلق عليها طفل راحته- إلى تلاهى الدنيا؟!

ملـــح الأرض

ملـــح الأرض

هـي امـرأة هزيلـة الجسـد ، مهترئـة الثيـاب ، تخـتلط ألـوان ثيابهـا المتداخلة ، كعلبة للألوان دهسها قطار بتراب كثيف ، يبدو للعين جليًا من على البعد. ترتـدي (الإيشـارب) بطريقـة تظهر قفاهـا ، تصرخ عليـه لفحـة شمس، و يتدلى من إذنيها قرط كبير من ذهب القشرة ، يدعمها لونه الزاهي الاصفرار بشعور ما، و تنحني أكتافها للأمام بعض الشئ.

كانـت تمضـى أمـامي فـي سوق المدينـة ، تصـطحب معهـا طفـلًا فـي السادسة مـن العمـر، و تميـل ميلـة منكسـرة علـى إحـدي ركبتيهـا ؛ فتعـوق انسياب الحشد خلفها. أخذ الجميـع يتعجلـوني لأسرع ، و تلفظ – بعضـهم - بألفاظ فيها الكثير من الإهانة. على الرغم من ذلك لم يكن بوسعي أن أسرع؛ كى لا أدهس تلك المتعبة أمامي. فمنحتهم تلك الأذن التي صنعت من طين، و لم أعرهم بالاً.

إنـه سوق المدينـة دنيا غير الدنيا، أنـاس غيـر الـذين تقـابلهم بخارجـه، و لو كانوا هم أنفسهم.

فالبشر فـى لسوق يكـاد بـداخلهم يتميز من الغيظ ، و الغضب في أحشـاء السـوق يشـتعل حـين يلـتحم فيـه الموظف، التـاجر، العامل، والفـلاح بالأجير، في كتله بشرية تتحرك ممتزجة للأمام على جانبه الأيسر، و علـى جانبـه الأيمـن تتحـرك كتلـة عائـدة، بعد أن ابتاعت مـا تريـد أو بـالأحرى مـا تستطيع.

الأرض شديدة التعرج ، مـا إن تضع قدميك عليها حتى تخور، و قد تقـع لكن مـا إن يصـطدم جسـدك بهـذا الكـم الهـائل مـن البشـر مـن امامـك و خلفـك. حتـى يُصـلب عـودك مـن جديـد. يتعـالى ضـجيج الباعـة ، عرباتهم،

سلالـهم ، (كرواناتـهم) **المتراصة بالأرض** تضيق الخناق على الأقدام؛ فتعسر السير أكثر و أكثر.

هم يبيعون كل أنواع الخضر و الفاكهة ، لكن من يشتري ماذا؟

تلك هي دومًا المعادلة الأصعب، و التى تشعرك أن سوق المدينـة هو ساحة التعبير الاقتصادي الصارخ المحتد غير الآبه بما يسمونه (البرستيج) ؛ كل يبتاع ما يقدر عليه.

و ها هم ملح الأرض ، يسألون عن أسعار الخضر فى مستهل السوق من باب المعرفة ليس إلا؛ ليذهبوا فيبتاعونها هي أو أشياء غيرها من مكان في نهايته أو من شوارع جانبية. من ملح الأرض كانت تلك المرأة التي تصطحب الطفل، و تميل على ركبتها اليسري.

لم تغب عن عيني ، سألتها أن أساعدها فى حمل أشيائها، فرفضت ممتنة، و أصررت – أنا – تقديرا لإعيائها، مضيت بجوارها.

هي الأخرى تركت كل الباعة في مستهل السوق، توجهت إلى آخره، و الطفل ماض معها ، سليب الإرادة ، حتى اللحظة تخرق أذني كلمات سمعتها منها ، حين نادها بائع العنب لتبتاع من بضاعته ، كأنها تقولها الآن.

- ربنا يرزقك يا ابني ، أنا ح اشتري حاجة مفيدة للأولاد.
فأرف البائع متعجباً.

- و هل في العنب ما يضر ؟!

استمرت طيلة مشيتها تبحث بعينيها عن شيء ما ، لم أدري حينها ما هو؟! فلم تكن هناك سلعة واحدة تعلن غيابها في السوق ؛ فالصوب الزراعية كانت قد أدلت بخضر الشتاء. انزوت و الطفل في شارع جانبي ، منه على زقاق ، يتسرب من بالوعة بمنتصفه مياه صرف صحي، أنا ما

زلت أحمل حاجياتها ، ظهرت على الأرض سلال متقطعة لباعة ، و جوالات بلاستيكية متهدلة ، فوقها بعض أصناف من الخضر، تنهار جودتها حتى ينطبق عليها وصف العفن. و ما إن توقفت أمام بائع البطاطس حتى أخذ الطفل صراخ هستيري ، **ارتمى على الأرض** ، تمرغ في التراب أكثر، دبدب بقدميه ، فظهر حذاؤه معلنا في قبح. أنه كان يسير - بلا حذاء - طيلة الطريق، و ربما طيلة عمره. كان نعله مقطوعا ، لا يبقيه عالقاً بقدم الطفل سوي رباط أسود قديم ، شدقه كان مفتوحًا، و كأنما هو لوحش جائع يلتهم **الأرض أو** يمنح **الأرض و الفقر** الفرصة ليشتركا سويا فى التهام قدم الطفل.

يتعالى صراخ الطفل ، تحاول تهدئته فيتمادي في صراخ مختلطا بدموع عفوية بمخاطه ، فخطوا في التراب الذي كان يعفر بشرته خطوطا **واضحة.**

- (لاااا ، و الله العظيم ما إنتى شارياها ، مش واخدينها - بصراخ **أعمق** - مش ح تشتريها **،** مش واكل **،** أنا مش مروح البيت تاني).

حاولت أنا أهدئه هذه المرة. لكن دونما جدوى كانت محاولتي. سألتها متعجبة.

- ما الأمر؟!هذه أول مرة فى حياتي أري فيها طفلاً لا يحب **البطاطس!**

فأخذت تحكى لي صولاتهم و جولاتهم مع البطاطس، و كيف أنهم تناولوها على كل شكل و لون ، ثم أردفت بشفقة على الصغير و خجل من ضيق ذات اليد.

- اعذره لأنه فهم على الرغم من قدرتها على التلون إلا أن طعمها لا يختلف كثيراً.

و لم تعبأ الأم بصراخ طفلها، و توجهت بكل ما فيها من ألم لبائع البطاطس تسأله عن سعرها.

فأجابها بصوت عال **؛** وكأنه يتباهى بأنها لن تجد بعرض السوق و طوله مثل هذا السعر.

- (بتلاته جنيه يا حاجه).

نزلت دموعها عندما فتحت كيس النقود واتجهت للطفل في لوعه **وحسرة وقالت.**

- اطمأن لن أشتريها.

حـــراس الموت

حـــراس الموت

يقطن منطقة على مشارف البلدة ، لم تكن ببعيدة عن وسطها على الإطلاق. بها بصمات لمؤسسات عده ، مدرسة ، مستشفى، مديريتان إحداهما تعليمية و الأخرى زراعية. جنوبها يمر الطريق الزراعي، و شمالها محطة للقطار. منطقة حيوية بكل المقاييس عدا مقياس الحياة؛ فلم يكن منزله يطل على ميدان كبير أو حتى صغير شاخصًا فيه تمثال لكاتب أو فنان و لا نحت من منحوتات الحضارات لتي مرت في وطنه على مر السنين أو حديقة عامه، و لكنه على العكس تمامًا ، فقد كان يطل على مشهد لغروب شمس الحياة ، نحتة الأبد.

تنفتح عليه أعين الأطفال ، و هو يتطلع إليهم من شرفة منزله. يختلط سوادهم بذرات التراب ؛ فينطبق عليهم وصف (الملحوسين). يتدلى خيط من مخاطهم فوق أفواههم ، فلا هم يمسحونه أو حتى يبتلعونه. ثيابهم رثه ، كما لو كانوا قد تمرغوا في مقلب للقمامة.

مشهد جعله يلعن الطفولة و الأطفال؛ لو كانوا جميعاً سيتخذون نفس الوصف. عيناه ترقبهم يلعبون فوق مصانع لتدوير البشر، إن كان هناك تناسخ للأرواح ، يعتلون النبور ينزعون في سفه نبات الصبار ، يصرخون بكل ما أوتيت حناجرهم من قوة ، يعبثون ، يتوارون من الحياة في أحضان الموت.

فهذه البقعة من المدينة لا يغادرها قط أحد من ساكنيها، يتساوي في ذلك الأحياء و الأموات. فى مشهد تضيق فيه القبور بالمنازل، و المنازل بالقبور، لا تكاد تفرقهم عن بعضهم البعض من شدة التحامهم ، إلا بحبال الغسيل الحزينة في شرفات المنازل ، ربما يختلف سكان كلتيهما، و ربما لا.

فما الفرق بين - الأرض الحبلى - بالموتى، و تلك التي تحملهم على عنقها !.

انتبه ليجد نفسه يتطلع إلى قبر أمه ، تذكر كيف كانت تسعي بكل طاقاتها لتمنعه من اللعب مع الأطفال في المنطقة.

كانت تخبره بأن الحال تضيق، و أنهم لن يستطيعوا الفرار بعمرهم، لكنه لم ينصت لها أبدًا، و ظل ينزل يوميًا إلى القبور ليلعب و الأطفال.

تذكر كيف مرت الأيام ، ثقيلة ، بطيئة على طفولته البائسة، و مراهقته أيضًا. هنا في نفس المنطقة و ذات المكان كان يتوارى من أبيه و أمه خلف الأقبية ، تذكر أول علبة سجائر ابتاعها، و كيف نفث و زملائه - أنفاسهم الأولى – هناك بين الأقبية. تطورت بهم الحال للسجائر المحشوة، بعدها ما لبثوا أن تعاطوا الأقراص المخدرة. كانوا يعتلون الأفق للحظات يملكون فيها النجوم ، كل أمانيهم و أحلامهم بأسرها تصير حينها واقعا يلمسونه ،فهم ينعشون مزاجهم في أحضان الموتى.

مرت مراحل عمره بأسرها أمام عينيه مرورًا سريعًا، اختلطت مشاعره ما بين الحنين و الألم، الحسرة و لأمل. فأخذه شريط الذكريات لشبابه بعد صراع تخلص فيه من إدمان الأقراص المخدرة، بعدها تزوج ثم أنجب أطفالا ، و مازال قاطنا لنفس المنطقة ، على الرغم من أحلامه التي لا تمل بتركها.

وقعت عيناه على طفاله ، توقف شريط الذكريات، و شرع شريط الألم ينهش في قلبه ، ها هم يعيدون تجارب الأمس بطعم ألم مختلط طازج، قاس ، ألم ماضيه، و ألم حاضره الذى يعيشه من أجلهم. ها هم يفعلون كما كان يفعل، يلعبون فوق أقبية القبور ، يتعلقون في شواهدها ، ينزعون في سفه نبات الصبار، يصرخون فى أولاد جيرانهم ، و يتبادلون معهم الشتائم .

تساءل بعد أن شرد ذهنه.

- هل يدركون أنهم يزعجون الموتى؟ هل يدركون أن من يلعبون عندهم الآن، و يدقون فوق رؤوسهم أناس كانوا – في يوم من الأيام - يتحركون ، يعملون ، يحبون و يكرهون؟! أطفالا كانوا يلعبون كما هم الآن؟! ثم كبروا ليصبحوا أباءً وجدودا لأمهم و أبيهم . هل يدركون؟!

ثم عاد ليشفق عليهم فهم يفيقون كل يوم على مشهد جنائزي مار. حتى العيد لم يسلم من النواح ، فإن لم تمر جنازة لتنغص عليهم و أطفالهم يوم عيدهم، تتذكر النساء منْ تحت الأرض فيه؛ فتكون أداة مشتعلة تحيل فرح اليوم كدراً. نزعه من شروده صرخات نسوة تتعالى ؛ أطرق بعينيه لمصدرها فرأى جمعًا من الرجال قادمين خلفهم مجموعة من النساء يتوسطهم نعش.

ريعـــــان جهل

ريعـــــان جهل

فى طريق ذهابهم إلى المدرسة، يتهادون في مريلات براءتهم كما تتهادي قطرات الندي على زروع الفلاحين، في الصباح يجرون ، يلعبون ، يتقافزون و يشعرون أن الدنيا ملك يمينهم، و ينتهي اليوم الدراسي لتنساب شلالات البراءة عائدة لمنابعها ، في طريق عودتهم يلهون بالحقول، ينزعون قرون الفول ، يفشرونها و يأكلونها، ثم يعودون للعدو خلف بعضهم ،هو المدى ملكهم لا يكترثون لصاحب حقل ؛ و ليس هناك من صاحب حقل يعيق لهوهم ، ينهكون فيجلسون جميعا في أحد الحقول القريبة من قريتهم؛ كي يكتبوا واجباتهم المدرسية، و تجذب العين وسطهم فتاة فى ريعان طفولتها، تنعكس أشعة الشمس على ضفائرها السوداء الطويلة، و خصلات شعرها المنسدلة على جبينها. فلا يقدر أحدٌ أن يرفع عينيه عنها .مشهد رائع يتكرر يومياً حين تكون أبواب المدارس مفتحة على مصراعيها، لم يعكر صفوه سوى عصر ذلك اليوم.

كانت تلك الأسرة التى انتقلت إلى القرية مؤخرًا في منزلها، كل فرد من أفرادها يبذل الجهد في عمل ما. فجأة سمعوا جميعاً صوت صراخ شديد، يكاد يذهب بالعقل. تجمعوا مسرعين فى حجرة ابنتهم ؛ تلك الأقرب إلى الصراخ. فإذا بهم يسمعون صوتاً يكسر الصراخ، يفك شيئا قليلاً من إبهام الموقف .إنه صراخ امرأة عجوز تزعق بصراخ ، يقض مضجع الموتى.

- (يا بنت سنين ... كنتِ فين ؟! قافله عليها ، كنت فين؟و ظلت تكررها ، يا بنت ستين ...كنت فين؟ كنت فين؟ يا بنت ستين ...).

الجواب الوحيد على شتائم العجوز كان صراخًا متصلًا ، لا يكاد ينقطع حتي يبدأ من جديد ، فلا الصراخ يتوقف، و لا العجوز تكف عن شتائمها. بدا الأمر كما لو كن رجلا و زوجته يتشاجران، أن أم الزوج قد

تدخلت فى الموقف؛ تدخلها و شتائمها هي ما جعلت الأمر يبدو و كأنه شجار عائلي.

- حسنا طلما أنه أمر عائلي، فهذا ليس شأننا. هكذا قال الابن الأكبر ، و استطرد لينصرف كل منا لشأنه.
أجابته أمه شاردة بعض الشئ.

- هذا ليس صراخًا في مشاجرة، وجارنا مريض اذهب و تبين الأمر؟ لربما يكون قد وافته المنية!
- يا أمي رأيته بالأمس. تعرفين أنهم دائمو الشجار، و هذا السباب لا يكون أبدا بحضره روح ذهبت إلى خالقها.
بعدها انصرف الجميع، و مكثت – الابنة - فى حجرتها. تلك الأقرب إلى مصدر الصوت.

صوت الصراخ ما زال يتعالى ، انقضت نصف الساعة ، و الصراخ لا ينقطع، ذهبت الفتاة إلى أمها.

- أمي يبدو بالفعل أن الرجل قدوافته المنية. لو كانت مشاجرة ؛ لكلوا و تعبوا.
خرجت الأم من فورها على بوابة منزلهم لتتبين ما في الأمر، و لم تمض سوي دقائق حتى مرت أمامها فتاة ترتدي زياً مزركشًا فاقع اللون، تضع سماعه هاتفها انقال في أذنيها،تغني- في الطريق - بصوت جهير، و كأن لا صراخ في القرية استمر لنصف الساعة و مازل ، أخذت الأم تناديها.

بعد حين من الزعق فى أذن الموتى ، انتبهت الفتاة لجارتها، و أخبرتها بمافك إبهام الصراخ على النحو الصحيح. إنها ابنة جارهم عبد الله ؛ قد انحشر عنقها فى حديد النافذة الخلفية للمنزل، و صعدت روحها إلى بارئها.

هرعت الأم للداخل منادية على ابنها الأكبر قائلة.

- اذهب و تبين ما فى الأمر، لربما قدرت أن تساعدهم فى شيء.
تهاني أخبرتني أن ابنتهم قد ماتت. أكثر من الساعة إلا ربع، و صراخهم لا يكف.
فهرع الشاب من فوره إلى منزل جارهم ، الجميع ملتفون حول الطفلة. إنها نفس الطفلة الجميلة التي تنعكس أشعة الشمس على ضفائرها السوداء الطويلة ، و لا يقدر أحد أن يرفع عينيه عنها حتى يعيد النظر ليراها من جديد.

كل أهل القرية ملتفون حولها،جدتها لأبيها و أمها مازالت تتشاجران و تصرخان.

وضع الشاب يديه على معصم الطفلة ليقيس نبضها قلبها، ما زال ينبض ، كم أنت رحيم يا الله! لكن صراخ أم الطفلة و جدتها لم ينقطع بعد.

حينها بادرهما بشيء من العصبية، و صرخة حسم أوقفت الكلمات في حلق الجميع.

- كفوا قلبها ينبض ، مازال فيها حياه ، أفسحوا احجرة هذا الجمع يخنقها ؛ هيفي حاجه للهواء ، الهوااء ، اخرجوا.

خرجوا على مضض بعد أعلنوا غضبهم لأنهم – جميعاً- أهلها؛ لن يخاف عليها أكثر منهم . لم ينتبه الشاب لحديثهم، أخذ يجرى للفتة تنفسا صناعيا، و يجهد ليبدأ من جديد.

الفتاة شبه ميتة ، الدم ينقطع عن العروق التي تصل إلى المخ، و مازال الشاب يجهد ليبدأ من جديد، و يأتيه صوت من أخرجهم من الحجرة نساء و رجل ، يقول أحدهم:

- (هيه أمها كانت فين)؟!
فجيبه الثاني

- (أي آخرة المشى الطال).

و يتدخل أخر

- (هيه مش ح تتعظ بقى البت ماتت) ؟

ما زال الشاب يجرى تنفساً صناعياً للفتاة، حتى أفرغت كل ما بمعدتها علي فمه و ثيابه.

حينها بادر أبوها قائلا:

- (بنك الفروض تتنقل للمستشفي حالاً و إلا ح تموت).
- حاضر.

خرج الشاب من بيت جارهم، و أمام الباب الرئيسي الذي يستقر أسفل نافذة حجرة الطفلة ذات النافذة التي اختنقت بين حديدها. وجد من يقولون إنهم أهل الفتاة فبادرهم.

- إن كنتم حقا أهلها فليس هذا الوقت الذي تخوضون فيه في أعراض النساء.

ثم تركهم و عاد لمنزله؛ كي ينظف نفسه. فما أفرغته -عليه- الفتاة له رائحة شديدة العفن ، كما لو كانت أفرغته بعد موت حقيقي.

قابلته والداته على الباب ، كانت هي أيضا تحب الفتاة ، فقال مطمئنا لها .

- اطمئني يا أمي ، كُتب لها عمر جديد.

ثم دلف..ليأخذ حماما. مضت ساعة و نصف تقريبا، و أهل الفتاة مازالوا يتسامرون، يتناقشون، يزيدون في الحديث ويعيدون.هل يذهبون بها إلى المستشفي ؟ ذهب إليهم الشاب ثانية.

- أسرعوا الأمر لا يحتاج إلى مداولات.

وكانت للأب ذات الإجابة.

- حاضر.

عاد الشاب لمنزله ، فذهبت إليه أخته متسائلة.

- هل ذهبوا بها إلى المستشفى؟

- ليس بعد.

- يا لتباطئهم ! هذه روح ، كيف تطيق كل هذا البطء ؟! اذهب إليهم مرة أخرى أرجوك.

هدئي من روعك ، هم قالوها في بداية الأمر : " لن تخاف على ابنتنا " أكثر منا، و لو كانوا سينفذون نصيحتي هذه المرة ، لفعلوا من الأول.

حينها لم تجد تلك الشابة ، بدا من أن تستعين بأخيها الأصغر.

- أستحلفك بالله ، اذهب و تعجلهم.

- لن يجدي هذا شيئاً صدقيني. أتدرين ما المشكلة ؟

بشيء من الهستيريا، قالت الفتاة.

- ما المشكلة ، ما المشكلة؟؟

- المشكلة هنا يا عزيزتي . أن الجهل ينهش عقول البشر ، يعشش فيها كالخفافيش و البوم في الأماكن الخربة، هذا ليس ذنبهم ؛ لكنه ذنب الدولة التى هم مواطنون بها ، و ذنب رجال الدين الذين جعلوا أناسًا مثل هؤلاء يستعيضون بالتلقين كي يصلوا إلى الله بدلا من أن يسعوا للعلم.

- أستحلفك بالله اذهب ، ليس هذا وقت تغيير منظومة.

خرج الأخ الأصغر ملبياً رجاء أخته وهو في داخله مقتنع أنه لا طائل من ذهابه هو الآخر.

مرت ساعتان، و الفتاة المسجي جسدها على الفراش لا تأخذ من الأحياء حولها شيء يساعدها على الإطلاق ، لا شيء يفعلونه لها سوي الصراخ و العويل، و النميمة على والدتها.

في طريقه إلى بيت جارهم ، وجدهم قد أحضروا سيارة ؛ كي ينقلوها للمستشفى ،فقال موجها حديثه لبعضهم.

- لحمد لله.كنت آتيا لأتعجلكم.

أمام البيت ، رأى الطفلة وهم يضعونها في السيارة تعجب من جمالها كانت نائمة ، مغلقة العينين ، لم يُخفِ تهدل شعرها جماله فوضع يده على معصمها بعدها رفع عينيه إلى أهلها ، ثم أطرق بها إلى الأرض.

- الآن لا داعىَ للعجلة ، على رسلكم.

عيـــــش مدعوم

عيـــش مدعوم

فجر كل يوم يراهم أغلب القاطنين بالمنطقة كمًا و وصفًا عائلة نساؤها كما رجالها ، يربو وزن الواحد منهم عن المائة كيلو جرام ، و على الرغم من ثقل أوزانهم. تستوقف الجميعَ سرعة حركاتهم، رشاقة أياديهم، و سعة ضمائرهم.

لا أحد يدري إن كانت هذه الأخيرة بعلم منهم أم لا؟! فهناك الكثيرون ممن يظنون - **الضمائر الطللة** - ذكاءً و (فهلوة).

كانت تلك العائلة تمتلك مخبزًا يستقر بشارع من أكبر شوارع المنطقة ، على مقربة من مسجد الهدي. حال ذهابي للمخبز كنت أجد الشارع على اتساعه مكدس الجانبين بالمواطنين. الذين يبتاعون حصتهم اليومية من الخبز . على أرصفة المحال أري الخبز، و قد تناثر من بعضهم أو بمعني أدق هم من نثروه ليبرد؛ فيقدرون على حمله، و العودة به إلى منازلهم. سيصبح مخضبا بالتراب لكن لا بأس، هو كذلك **منذ أن ابتاعوه**.

و يسترعي الجميع ذلك المشهد لسيارة نصف نقل بيضاء ، يحمل سائقها على ظهره أجولة الدقيق من المخبز ليرص أحدها فوق الآخر في صندوق السيارة بمهنية شديدة و يمضى، فلا أحد يعرف أين يذهب و لا أحد يتساءل.

لكن هذا الفجر مختلف، **فقد عزم أحد الشبان على استقصاء الأمر كما** لو كان حالة بحث. يا الله ! لكم توغر - هذه الأفعال - صدر الجيل الطالع. فجيل الآباء اعتاد الصمت. **حتى أصبحت** - هذه السرقات - تجري أمام عينيه مجري العادية ، فهى لا تؤرقه أو تحرك ضميره الساكن.

ركب الشاب دراجته ليتقصى أثار السيارة ، و يعرف إلى أين تذهب **بأجولة** الدقيق ، لكنها كانت أسرع من دراجته ، فغابت تحت الضباب بعد أن أنهكت قواه في اللحاق بها. بعدها اتخذ طريقه عائداً إلى المخبز. مازال الناس يفترشون أرصفة المحال ، مر بينهم فى طريقه. أخذ يتقصى الحقيقة من الواقفين أمام شباك المخبز. يسأل و يستمع للمتزاحمين في الطابور الملتوية أمعاؤه. فيقول أحدهم.

- لدي عم إبراهيم مخبز فى مكان آخر، و هو يوفر من هنا دقيقاً ليستعمله فى الآخر.

لكن الأغلبية أجمعوا أن هذا الدقيق فائض عن المخبز، هو - بالطبع - دقيقٌ مدعوم يباع للتجار، بسعر أغلى من سعر شرائه.

أطرق يستمع و يقول فى نفسه.

- و يح هذه البلاد! سراق كبار و سراق صغار و مواطن صعدت روحه إلى السماء ، و إن كانت قدماه مازالتا على الأرض. إلى أن وجد نفسه مباشرة أمام شباك المخبز و عم إبراهيم يسأله. كم عدد الأرغفة التى يريد؟..لم يكن منه إلا أن أجابه على سؤاله. فلو لم يفعل للاقى - من الإهانة - ما لا يطيق، و لأصبح ملتقى لشتائم الخباز و المتراصون فى الطابور.

- عشرون يا عم إبراهيم، و هذا جنيه.

أخذ العشرين رغيفًا تراجع عن الصف، سخونة الخبز تلسع كفيه فجرى للخلف، و بشيء من التلقائية وجد نفسه يرص الخبز على رصيف أحد المحال بجوار عجوزين ، فعلا نفس الشئ قبله، و بآهة مكتومة من أثر اللسعة حياهم.

- صباح الخير.

الرجلان فى نفس واحد .

- صباح النور ، تفضل.

جلس الشاب ، و هو يقول:

أنا لا أدرى كيف سنأكل الخبز بعد أن وضعته على الرصيف ؟! فوق تراب داسته النعال ، و ربما تكون أهون ما مر عليه.

أحد الرجلين باستغراب.

- و لماذا تأكله ؟!
- إن اشتريت خبزا ماذا سأفعل به ؟!

تأفف الرجل قليلا، فهو يعرف شباب هذ، الأيام. ينعتهم- بالغباء- دائما لأنهم يعشقون الجدل و أجابه قائلاً.

- قد يكون الرصيف بكل ما عليه، أرحم مما بداخل الرغيف.
- أمازالت المسامير تتبارى بداخله ؟!
- لا يا عزيزى أنت إن رأيت المسمار أقصيته، اعتبرتها غلطة خباز أو سهوًا، و أكملت طعامك. لكن ماذا تعل - لو رأيت - بأم عينك فضلات الفئران، أوقرقشت - تحت أسنانك - حبات الرمل؟!
- ماذا سأفعل! سأقذفه من النافذة ، و إن رفقت به سأضعه للحيوانات الضالة تشبع جوعها.
- و هذا ما أفعله أنا أيضاً.أطعمه لحيواناتي..فهو أرخص الأعلاف.
- تطمعه لحيواناتك ؟!

تدخل العجوز الأخر بشىء من الحسرة.

- دعك منه ، هو يطعمه لحيواناته، أما بالنسبة لى فالرغيف - و إن كان لا يصلح لغير ذلك- فإننى - أنا و أولادى- من تلك الحيوانات التى تأكله. فأنا أنتزع فضلات الفئران، خيوط الأجولة، وآكله، لـ (تقرقش) حبات الرمل تحت أضراسى. لن أقول نحن نتأفف و نأكل، بل نحن نأكل متأففين.

لم يستطع الشاب بعدها جلوسًا. لملم أرغفة الخبز، و هو يتحسر على حال وطنه. فقد أصبح كل من فيه يسرقون ، سواء أأدركوا ذلك و اعترفوا

به..أم لم يدركوا. و عاد إلى منزله يخبطكفا بالأخرى ، فطالعة وجه الوزير فى أنباء الصباح، و هو يقول:

- لا مساس برغيف العيش المدعوم.

الفهرس